

دراسة في مشكلة الفن

بقلم م. وليد فتوح

البحث عن نظرية محددة للفن عند افلاطون ، فاننا سنفضّل ، لان افلاطون لم يترك لنا فلسفة معينة في هذا الصدد ، ولكننا نستطيع مع ذلك ان نستخلص من فلسفة افلاطون - غير المنظمة - عن الفن ، انه لم يكن يفرق بين الفنون الجميلة وغير الجميلة ، فلفظة الفن تدل على الصناعة، ويضرب افلاطون مثلا بالفنون كالنجارة والحدادة وغيرها من الصناعات، وذلك في محاوراته . وهذه الصناعات ترجع الى ابداع الفنان لها (٢) .

اما العرب ، فلم يفرقوا بين الفن والصناعة ، وقد كانوا يرون في كلمة « الصناعة » اشارة عامة الى مفهوم « الفن » . ونحن لو طالعنا مقدمة الفيلسوف العربي « ابن خلدون » لوجدناه يبوب احد فصول كتابه الاول بما يلي : « الفصل الثاني والثلاثون - في صناعة الفناء » وفي هذا الفصل يقول بالحرف الواحد : « وهذه الصناعة اخر ما يحصل في العمران من الصنائع لانها كمالية في غير وظيفة من الوظائف الا وظيفة الفراغ والفرح ، وهو ايضا اول ما ينقطع عن العمران عند اختلاله وتراجعه ، والله اعلم (٣) » ونحن لن نناقش هنا « مضمون » هذا النص عن الفناء باعتباره كماليا ، بل نود ان نشير الى ان ابن خلدون كان يعتبر الفناء ، وهو فن ، صناعة كما يشير الى ذلك العنوان، وهذا ما يؤكد ما جئنا عليه من ان العرب كانوا يعتبرون الفن صناعة .

كذلك قد نجد للعرب تعريفا اخر للفن ، اذ فهموه من ناحية اخرى اوسع واشمل ، باعتباره « الانسان مضافا الى الطبيعة » والحق اقول ان هذه الفكرة تستعلي اليوم على أي تعريف قديم او حديث للفن، فكان الانسان هو هذا الشطر الاول من الفن ، وكان الطبيعة هي هذا الشطر الثاني منه ، وبلقائهما يبلج الفن كاملا .

ونتابع حديثنا في سير شبه تاريخي كما ذكرنا ، فنقول ان مفهوم الفن في العصور الوسطى قد عاد الى مفهوم النشاط الحرفي او الصناعي او الانتاجي ، كالصناعة والتجارة والبناء ، وقد فرق بين مصطلحي « الفنون » و « الفنون الحرة » ، فاما « الفنون الحرة » فكانت تعني فروع المعرفة السبعة وهي النحو والمنطق والبلاغة والحساب والهندسة والموسيقى وعلم الفلك . واما في العصور الحديثة فان هذا المفهوم للفنون الحرة قد تغير ، واصبحت تعني : « اللغات والعلوم والفلسفة والتاريخ » على اعتبار ان هذه العلوم جميعا لها تدخل في دائرة التعليم الصناعي او المهني » .

ولا بد لنا ، ونحن في صدد البحث عن مفهوم الفن في العصور الحديثة ، من ان نتوج هذه العصور برأي الفيلسوف الديالكتيكي (هيجل) اذ يقول : « مهما تبلغ الدولة من كمال ، فهي ليست الغاية القصوى التي يتجه اليها تطور الروح ، وليست الحياة السياسية المظهر الاخير لنشاطه، ان ماهية الروح : الحرية ، واكمل دولة لانخرج عن كونها قوة خارجية . لنا يصعد الروح الى أعلى من الدولة ، ويعمل على تحقيق ما يجده في نفسه من مثل اعلى للجمال والله والحقيقة ، فيولد الفن والسينما والفلسفة ، ويصير الروح المطلق بالفعل اذ يتحقق على هذا النحو في نفس الانسان » . ويتابع هيجل قوله : « بالفن احرز الانسان اول انتصار

لم يعد الفن مسألة ثانوية يتناولها الفنانون والنقاد بالدراسة النظرية فحسب ، ولم يعد موضوعا جانبيا يقابله المفكرون بالاكتراث ، بل بات الفن في مستوى المشكلة الفلسفية ، باعتباره هذا الاثر الحضاري الحديث ، الذي يسهم الاسهام الرئيسي في التعبير عن وجود الانسان .

وسأحاول في هذه الدراسة لمشكلة الفن ان اكون في مستوى دقة المشكلة وعمقها واتساعها قدر الامكان ، فسأتي اولا بالتفصيل على التعريفات التي قيلت في مفهوم الفن، من « افلاطون » الى « هيجل » و « كروتشنة » . ومن « تولستوي » الى « لالو » و « سوريو » و « باير » وغيرهم . ثم أنتقل تانيا الى شرح العمل الفني فأتحدث عن بنيته الزمانية والمكانية وعن موضوعه وبنيته من التفصيل عن تعبيريته، لا طرق بعد هذا نظرية « المحاكاة » تالشا، آتيا على نظريات كل من « افلاطون » و « كولردج » و « برغسون » وغيرهم في هذا الموضوع ، ثم أعقد بعد ذلك شبه مقارنة بين الفن والصناعة رابعا ، فسأتي على آراء « ابن خلدون » و « سوريو » و « فاليري » وسأتحدث خامسا عن فردية او اجتماعية الفن ، متعرضا الى النظريتين المشهورتين : نظرية الفن للفن ، والفن لخدمة المجتمع ، لاصل بعد ذلك الى الحديث عن صلة الفن بالحياة سادسا ، فسأتي على نظريات « ديوي » و « شوبنهاور » و « غوثو » في هذا الصدد ، لا طرق سابعا مشكلة هي في مقدمة المشاكل المتفرعة التي تبحث في مشكلة الفن الا وهي مشكلة الابداع الفني ، مستعرضا بالنقاش آراء كل من النظريتين الرومانسية والاجتماعية، ومن ثم لا نتقل للحديث عن مسألة التذوق الفني ، وعن طابع الكلية في التعبير الفني لناأتي على « نسبية » او « مطلق » التذوق الفني ، وقيل ان نسرده تاريخ فلسفة الفن « الاستطيقا » كما يراه كروتشنة - تامنا - نتعرض الى مسألة النقد الفني .

١ -

ففي تعريف الفن نقول انه لو رجعنا الى الاصل الاشتقاقي لكلمة الفن Techné باليونانية ، و Ars باللاتينية ، لوجدنا ان هذه الكلمة لم تكن تعني سوى « النشاط الصناعي النافع بصفة عامة » (١) .

ونحن لو سرنا بالبحث سيرا تاريخيا ، لوجدنا ان الفن كان عند اليونان يشمل الى جانب الشعر والنحت والموسيقى كثيرا من المظاهر المهنية والانتاجية الصناعية ، ولو تقرينا آراء الفلاسفة اليونان الكبار كافلاطون مثلا ، لوجدنا انه يعتبره مدخلا الى الفلسفة ، ونافذة نظل منها على الحقيقة ، ولنا ان نذكر ان شيخ الفلاسفة الاول سقراط كان مشتغلا بالفن في صباه ، ينحت التماثيل حتى شاخ ، واننا لو حاولنا

(١) سنعتمد في هذه الدراسة على كتاب الدكتور زكريا ابراهيم « مشكلة الفن » كمرجع أساسي ، الى جانب المراجع الاخرى التي سيمر ذكرها في حينها .

(٢) افلاطون : الدكتور احمد فؤاد الاهواني (سلسلة نوابغ

الفكر الغربي - ٥ -) .

(٣) مقدمة ابن خلدون - بقلمه .

على المادة قبل ان يتنصر عليها كليا بالعلم . فان الفن انزال فكرة في مادة وتشكيلها على مثالها ، ولكن مطاوعة المادة متفاوتة ، وهذا اصل تعدد الفنون الجميلة التي تندرج من المادية الى الروحية ، وهي تتوزع على طائفتين : طائفة الفن الموضوعي تشمل العمارة والنحت والتصوير ، وطائفة الفن الذاتي تشمل الموسيقى والشعر « (٤) » ، وهذه نظرة السى الفن ، اقل مانصفها ، نصفها بانها « نظرة - من عل » ارتفع فيها هيكل الى مستوى المثل الافلاطونية ، ان صح التعبير .

وللكاتب الروسي « تولستوي » رأي فرد في الفن ، فهو يدعونا الى الافلاخ عن فكرة ربط الفن باللذة ، ويوجها الى ان ننظر اليه نظرة موضوعية « بوصفه مظهرا من مظاهر الحياة البشرية » هذه ناحية ، وناحية اخرى نقولها حول رأي تولستوي في الفن ، فهو ان رفض ربط الفن باللذة ، فقد اراد ربطه بالكلام ، انه ربط مقارنته ، ذات اهمية كبرى ، فكما ان الكلام هو لغة الاتصال اللفظي بين الناس ، فان الفن هو هذه الاداة العاطفية التي تربط بين هؤلاء الناس . واذا اردنا ان نجد تعريفا للفن عاما عند تولستوي لوجدنا قوله « انه ضرب من النشاط البشري الذي يتمثل في قيام الانسان بتوصيل عواطفه الى الاخرين بطريقة شعورية ارادية ، مستعملا في ذلك بعض العلامات الخارجية » . بل هو ينهب الى ادخال كل ما من شأنه ان يوصل الى الاخرين حياتنا الباطنية في نطاق الفن ، او على العكس ، كل ما من شأنه ان يوصل اليها حياتهم الباطنية ، بما في ذلك اغاني الامهات لهددة اطفالهن ، وشتى ضروب الطقوس الدينية . الخ ، اما الفن الذي يعطيه تولستوي نعت « الفن الحقيقي » فهو ذلك الانتاج الصادق الذي يحصل فيه الامتزاج الكامل بين الفنان وعمله الفني ، حيث لها حدود ولها تخوم تفصل بينهما ، بل هو انتاج مغمم بالعاطفة ، فيأتي الفن جالبا لقلوب الناس ، كل الناس .

وبمناسبة ذكر العاطفة في مفهوم الفن ، فان كثيرا من الفنانين والنقاد يربطون بين الفن والعاطفة او الخيال ، ونذكر على سبيل المثال لا الحصر ، عالم الجمال الفرنسي « شارل لالو » الذي يقول بان « كل مهمة الفن انما تنحصر في خلق عالم خيالي تكون وظيفته الاولى ان يجيء مخالفا بوجه ما من الوجود لهذا العالم الذي نحيا فيه » . ويقول الناقد الفلسفي كولنفورد :

« ليس الفن معرفة ، اذ لا يمكن ان نمدحه لما فيه من صدق ولا هو يهدف الى ايصال الفكر ، وهوليس برأي معين ، ولا يمكننا ان نمدحه لما فيه من فائدة ، ان اسمه الصحيح هو « الخيال » وما يهدف اليه هو الخيالات والصور ، وهي ليست الا رؤى ادركها الفنان ، بل خلقها بفعالية تشبه فعالية خلق الاحلام ، وهذه الفعالية الخيالية لا تقرر شيئا ولا تنص على امر ، ولذلك فان الفنان لا تنقصه المعرفة فحسب ، بل ينقصه حتى الرأي ، واعماله لا تحتوي على حقائق ، انما هي تحتوي على فتنة وزخرف ، اذا ماجردتهما عن صورته لم يخلقا شيئا وراهما ، وهذه الفتنة او هذا الزخرف هو ماندعه بالجمال (٥) » .

ولكننا اذا اكتفينا بهذا التفسير للفن ، فاننا نفر عندنا ان الخيال هو الجوهر الاوحد للفن ، وليس هذا بحقيقة اطلاقا اذ ان الفن ليس مجرد عاطفة او خيال ، لانهما وحدهما عاجزان عن تفسيره تماما ، فهو بالإضافة اليهما ، خلق وصناعة ، وفي كل الحالات فالفن لابد من ان يقترن بنشاط تركيبى ابداعي يكون هو الاصل في كل عمل فني .

اما عالم الجمال الفرنسي «سوربو» فقد حاول استبعاد فكرة الجمال من الفن ، أي انه ليس ثمة ارتباط بين فنية العمل الفني وجماله ، فنحن نستطيع نفي الجمال عن العمل الفني ، ولكننا لانستطيع في هذه الحالة نفي فنيته . فالعمل الفني ، فني ، ولو كان غير جميل . كذلك رفض « سوربو » فكرة ربط الفن باللعب او باللهو ، كما نادى بها « كانط » و « شيلر » وغيرهما ، فاعتبروا الفن لونا من الوان اللهو . والفن عند

سوربو بالتعريف هو « نشاط ابداعي من شأنه ان يصنع اشياء او ينتج موضوعات » . وثمة ارتباط كبير في رأي هذا العالم الجمالي بين الفن والصناعة ، فالنشاط الفني ، هدف الى انتاج « موجودات » او تكوين « اشياء » أي هدف الى صناعة اشياء او خلق موجودات فردية يكون وجودها غاية تلك الفنون ، ويضرب لنا مثلا جميلا وطريفا ، يبرز فيه كيف يعتبر الفن موجودا فرديا ، يقول « ها أنذا موجود بمنزل صديق لي ، وها أنذا انتظر ، ثم ها هو صديقي يشرع في عزف الاجزاء الاولى من المقطوعة الموسيقية ، ان الباب لم يفتح ومع ذلك فلقد اقتحم علينا الحجره كائن ما ، لقد اصبحنا ثلاثة : فهذا أنا ، وذاك صديقي ، وتلك هي المقطوعة الموسيقية » ، واعتقد اننا لن نجد احساسا بالفن لدى مفكر كاحساس سوربو به كما يدل على ذلك هذا المثال .

فستطيع ان نخلص من نظرية سوربو في الفن ، الى ان وظيفة هذا الفن عنده هي وظيفة « سكيوبويطيقية Skeupoétique » بمعنى انها خلق اشياء وصنع موجودات . ويرى الدكتور زكريا ابراهيم ان اعتمادنا على فكرة سوربو في الفن : فكرة الشيء ، انما يساعدنا على حل بعض المشكلات التقليدية في الفن ومن بينها العلاقة القائمة بين الصورة والمادة ، او بين الشكل والمضمون .

اما بالنسبة لرأي عالم الجمال « ريمون باير » فهو يرى بايجاز ان الفنان لا يعرف التأمل السلبي ، بل هو في صميمه احساس لا يكل ، ونظر لا يعرف الاعياء ، ونشاط لا موضع فيه لاستيقا سلبية .

ونحن اذا كنا نقر هذا الرأي ونرى فيه عين الصواب ، فاننا نرى في رأيه القائل « بان الفلسفة عبثا تحاول ان تفسر الفن » عين الخطأ ، لان الفن في رأيه ليس من الفلسفة في شيء ، او لعله من الاجدر عنده ان نقول انه لو كان للفن مذهب فلسفي لما كان شيئا اخر سوى فلسفة النجاح .

ونحن اذا ماناقتنا الشطر الاول من قوله الذي يدعي فيه ان « الفلسفة لاضر للفن » لوجدنا ان الواقع الفكري - ان صح التعبير - من جهة والمذاهب الفنية الحديثة من جهة اخرى ، تدحض هذا الافتراء ، وتؤكد التأكيد الجازم بان ثمة ارتباطا وثيقا بين الفلسفة والفن ، فان لم تستطع الفلسفة ان تفسر الفن ، فمن الذي يستطيع ان ؟! .

لنأخذ مثلا على ذلك الحركة « المستقبلية » التي عبرت في فنها عن فكرة فلسفية كانت بمثابة نظرية لهذه الجماعة التي تزعمها « مارييتي » في ايطاليا ، فهؤلاء يرون انهم يعيشون في المستقبل ، لان كل لحظة من لحظاتهم تندفع الى اللحظة التي تليها ، اذ لاسكون في الحياة ، ولذلك فعلى الصورة ان ترسم الحركة وتوحي بها (٦) .

فمن هذه النظرة الفلسفية انطلقوا الى ميدان الفن كتعبير لها ، فلو حاولنا ان نفسر فنهم ، لما اسعفتنا غير هذه النظرة الفلسفية التي آمنوا بها .

كذلك نورد ، على سبيل المثال لا الحصر ، المذهب السريالي الحديث في الرسم ، الذي تأثر بنظريات « فرويد » فلقد كان العامل الاكبر في وجود هذا الاتجاه نظريات فرويد في اللاوعي ، ولا ريب ان فرويد حين توصل الى نظرياته لم يكن رائده الا البحث الفكري ، في سبيل خدمة الطب ، ولم يكن يتوقع ان يصبح يوما نبي الحركات الفنية والادبية ، « اذن فنظريات فرويد في اللاوعي سيطرت على الفكر واوحت لاوروبا المنهمكة بامكانية حياة جديدة وامل جديد ، فحاول الرسامون ان يتغلفوا في خبايا اللاوعي ، فلجأوا الى الفن التلقائي ، بحيث تتحرك ايديهم دون ارادة منهم لكي يدفمها العقل الباطن حسبما يشاء . وكذلك حاولوا ان يصوروا الاحلام او بصوروا صورها هي كلالاحلام في جوها المليء بالرموز الغامضة . (٧) » فهل نستطيع ان ننكر بحال هنا تأثير الفلسفة في الفن مع ما اوضحنا من ان الفلسفة الفرويدية هي السبب الاول ، بل

(٦) الحرية والطوفان : جبرا ابراهيم جبرا .
(٧) نفس المصدر السابق .

(٤) تاريخ الفلسفة الحديثة : يوسف كرم « هيكل » .
(٥) الحرية والطوفان : جبرا ابراهيم جبرا .

تكوين هذه الصورة أو هذه الرؤيا في نفسه. ولا فرق هنا بين (الحدىس، والرؤيا، والتأمل، والتخيل، والخيال، والتمثل والتصور) وما الى ذلك، فتلك جميعا مترادفات في رأي كروتشه، تتردد باستمرار حين نتحدث عن الفن، وننهض بالفكر الى مفهوم واحد، أو الى منطقتة واحدة من المفاهيم، مما يدل على اتفاق تام .

وان موافقتنا كروتشه « بحدىسية » الفن، تستتبع بالضرورة انكار أربع نقاط تقدم بعض التعاريف للفن عليها :

الانكار الاول، هو ان يكون الفن واقعة مادية، أي ان القول بحدىسية الفن، يعني عدم القول بمادية هذا الفن. والجواب على قوله بأن الفن ليس ظاهرة مادية، هو رايه في ان الظواهر المادية ليست واقعية، في حين ان الفن واقعي الى ابعد الحدود، ولهذا لا يمكن ان يكون هذا الفن ظاهرة مادية، ان الفن لا يمكن ان يكون بحال ألوانا أو اشكالا أو اصواتا فحسب، إلا اذا اغفلنا التأثير الفني الذي تحدثه فينا قصيدة أو قطعة موسيقية أو تمثال ما . ومن هنا نقول بأن الفن ليس ظاهرة مادية، لاننا حين ننفذ الى طبيعة تأثيره، وطريقة هذا التأثير، ليس يجدبنا في شيء ان نبنيه بناء ماديا .

والانكار الثاني - الذي ينتج من قولنا بان الفن حدس - هو ان يكون هذا الفن فعلا نفعيا . ان الفن في رأي كروتشه لا شأن له بالمنفعة، لانه لا شأن له باللذة أو الألم من حيث هما لذة والم، ذلك ان هناك أكثر من فرق بين اللذة والفن، فمثلا قد تكون ازاء لوحة فنية في غاية الجمال، ولكنها تحمل موضوعا مقبها على القلب، وقد يكون العكس، قد يكون الموضوع مما تراح له النفس، ولكن اللوحة في غاية القبح واللافنية . اذن فكيف نربط بين اللذة والفن، وبعبارة اخرى، كيف نربط بين المنفعة والفن، اذ ان كل منفعة تتجه دوما الى بلسوغ لذة واستبعاد ألم، ولكن الكاتب لا ينكر كون النشاط الفني مصحوبا بلذة « فاللذة خط مشترك بين النشاط الفني وبين سائر أنواع النشاط الروحي » ويتابع كروتشه قائلا « وما كان في نيتنا حين عرفنا الفن بانه حدس، وميزناه عن اللذة، ما كان في نيتنا ان نكر مصاحبة اللذة للنشاط الفني » .

ولكننا لو تركنا كروتشه وكتابه لحظة، وطالعنا في كتاب اخر (1) رأي الفيلسوف الحيوي « غويو »، لوجدنا العكس تماما، فان كان كروتشه يفرق بين اللذة والفن، فان غويو يوحد بينهما على أساس عدم تفرقه بين الفن والجمال . يقول غويو :

« فليس الفنان الحقيقي اذن ذلك الذي يتأمل، بل ذلك الذي يحب ثم يعبر عن حبه للآخرين . ان عاطفة الحب هي مبدأ الشعور الفني، وكلما تقدم الزمن، رأينا كل لذة تكتسي ثوب الجمال، وسيأتي يوم يزول فيه التفرق بين اللذيذ والجميل، فما هذا التفرق اليوم الا نتيجة لقوة المنصر الحيواني الذي ما يزال يأسر الإنسان » وهذا مخالف - كما هو بين - لرأي كروتشه .

وثمة انكار ثالث - يستوجب لإيماننا بان الفن حدس - هو ان يكون الفن فعلا اخلاقيا، فالفن عند مفكرنا ليس فعلا اخلاقيا « ذلك النسوع من التأثير العملي الذي - على اتصاله بالمنفعة واللذة والألم - ليس نفعيا ولا لذيا بصورة مباشرة، وانما يخلق في أفق زوحي أسمى وأرفع »، فكروتشه يذهب الى ان الحدس - باعتباره معنى نظريا - متعارض كل التعارض مع كل تأثير عملي. وان النظرية الاخلاقية في الفن، ترى في بعض ن فروعها، ان غاية الفن توجيه الناس نحو الخير، والاصلاح من عاداتهم وتقويم اخلاقهم، ونفس فلاسفة الفن الاخلاقيين كانوا يعلمون عجز الفن عن تحقيق مثل هذه الامور، ومن هنا نفهم تساهلهم في بعض الاحيان مع الفن، حتى اجازوا له ان يولد بعض اللذات، شريطة ألا تكون هذه اللذات بشكل مفضوح . ويرى كروتشه مع ذلك، ان هذا المذهب لا يخلو من فائدة وخير، على الرغم من تناقضاته بل بفضلها، وهو

قد لانغالي اذا قلنا الاوحد، في خلق هذا الاتجاه السريالي في الرسم . فالانجاء التجريدي في الفن بصورة عامة، بماذا نفسره وبماذا نعلله؟! . واعتقد ان الفلسفة هي التي وجهت الفن هذه الوجهة، فارت على المنظور الهندسي، ويات الفنان في جل همه واهتمامه ان يخلق شكلا فنيا معبرا، دون ادنى اهتمام بالقواعد التقليدية القيدة له، وانني اذ اقول هذا، لا اعني عقم هذه القواعد، بل الذي اعنيه، هو ان الفلسفة هي التي دفعت بالفنان لان يثور على هذه القيود، كما دفعت بالشعر لان ينطلق انطلاقته الثورية . فالفلسفة اذن هي الدافع الاول في تحرر الشعر الحديث من الشكل « البحري »، وهي هي الدافع الرئيسي في تحرر الفن الحديث من الشكل « المنظوري » والاتجاه كلية الى المضمون، ومحاولة التعبير عن هذا المضمون التعبير الذاتي الذي يعطي الدلالة على أصالة الفنان، فتأتي اللوحة لها محاكاة للطبيعة، بل رسما للافكار التي تصلج في بحران عواطفه وتاملاته.

وللناقد الفني الاستاذ عفيف بهنسي رأي في هذا الخصوص، فهو يقول بعنوان « اثر الفلسفة في الفن » : « والواقع اننا نلمس هذا التفاعل واضحا في تاريخ الحضارة وفي تطور الفن بشكل خاص. فعندما كانت المثالية تسيطر على الافكار والاقلام، اتجه الفن في شكله ومضمونه نحو الجزالة والروعة . وعندما تطورت النظريات الفلسفية ومرت بفترة شاعرية، ظهرت الرومانسية في الفن والادب، وكذلك توافق ظهور الاهتمام بالطبيعة عند المفكرين والاقتصاديين كادم سميث والفنانين مثل غوستاف كوربيه » ثم يؤكد الكاتب تأثر المدارس الفنية الحديثة بالفلسفة « ولعل الوحشيين كانوا أسبق في البحث عن ظاهر الموضوع ولكن بصورة نسبية وبمعاناة فردية جعلتهم أقرب الى الفلسفة الفينومينولوجية التي جاء بها هوسرل، وان كان التعبيريون اوضح تأثرا بهذه الفلسفة الحديثة . والذين تأثروا بالنظريات النسبية لآنشتاين هم التكميبيون الذين أخذوا يبحثون فيما وراء الظواهر عن اصول وجواهر، عن ابعاد واعماق لم تكن لتخطر سابقا على ذهن الفنان التشكيلي، كذلك تأثر التكميبيون بمنطق ديكرت « أنا افكر فاذن أنا موجود » فقال براك « ان العقل سابق للانفعال » (8).

فكيف ننكر اذا تأثير الفلسفة في الفن، كما يريد « باير » بعدما بينا الجذور الفلسفية للمدارس الفنية الحديثة، اعتقد ان في مثل هذا الانكار، بعدا وأي بعد، عن الحقيقة .

ونعود الان، كرة اخرى، الى مفهوم الفن، او بالاحرى الى تعريفه، فنقف في خاتمة المطاف عند رأي الفيلسوف « بنديتو كروتشه » الكاتب والمفكر الذي خطا خطى المثالية في فلسفته، وحاول في كتاب له بعنوان « المجمال في فلسفة الفن » أن يضمنه محمل ارائه حول الفن وفلسفته (9) . وما يهمنا هنا هو تعريفه للفن .

يسأله كروتشه « ما هو الفن ؟ » ويقول متابعا « سؤال يمكن ان نجيب عليه مازحين (وقد لا تكون المزحة سخيفة) الفن ما يعرف الناس جميعا ما هو فما لم نعرف الفن على نحو من الانحاء، لا نستطيع ان نطرح هذا السؤال بحال من الاحوال » . وقبل ان يجيب على سؤاله، يتعرض لـ « معنى » الرأي الذي يطلقه كل من الفيلسوف وغير الفيلسوف، ذلك ان جواب الفيلسوف حول سؤالنا : ما هو الفن؟ - ان كان فيلسوفا حقا - يهدف الى ان يحل حلا صحيحا كافة المسائل المتصلة بطبيعة الفن التي ظهرت الى الان خلال التاريخ، اما غير الفيلسوف، فلا يستطيع الخروج من دائرته الضيقة، الا برأي « آني » عن الفن - ان صح التعبير - . ونصل هنا الى جواب كروتشه عن تساؤله عن الفن، فيعتبره : رؤيا أو حدسا .

ان الفنان في رأي هذا المفكر يقدم لنا صورة او خيالا، وهو يدل على نقطة معينة تكون قبلة تذوق المتذوق، فاذا بهذا المتذوق الفني يعيد

(8) قضايا الفن : عفيف بهنسي.

(9) سنأخذ اراء الفيلسوف كروتشه من كامل كتابه « المجمال في

فلسفة الفن » .

(10) المذاهب الاخلاقية : الدكتور عادل العوا (غويو) .

ينطوي على جانب كبير من الصواب في احلاله منزلة الفن منزلة اسمى وارفع من منزلة اللذة .

والانكار الرابع والاخير ، هو ان يكون الفن معرفة مفهومية - على حد تعبيره - ، ذلك لان المعرفة المفهومية في صورتها الخالصة ، أي في صورتها الفلسفية ، واقعية النزعة دائما ، لانها تحاول ان تقرر الواقع في مقابل اللاواقع ، او ان تقلل من هذا اللاواقع . اما الحدس عند مفكرنا ، فلا فرق عنده ولا تمييز قط بين الواقع واللاواقع ، اذ المهم هو ان تكون الصورة صورة مثالية خالصة .

ونحن نلمس تأثر كروتشه بالفيلسوف هيغل ، ليس نبي الفكرة السابقة فحسب ، بل في قوله ان صفة المثالية - التي تميز الحدس عن التصور ، وتميز الفن عن الفلسفة والتاريخ - هي الميزة الداخلية العميقة التي يمتاز بها الفن ، فمتى تجرد التفكير من صفة المثالية هذه ، تبسد الفنونمات .

ولكن في قولنا مع كروتشه ، في ان الفن حدس ، تبرز مشكلة جديدة ، هي مشكلة التمييز بين الصور الخالصة والصورة غير الخالصة ، فنتساءل الان : ما هو الدور الذي يمكن ان يحتله في الفكر عالم من الصور الخالصة المجردة من الفلسفة او التاريخ او الدين او العلم او الاخلاق او اللذة ؟!

فهل الفن هو تلك الصور الخالصة التي نرتاح لها في لحظات التعب أو حين نمضي الي تمضية الوقت ، وكان الفن لعب ؟ . وان القول بمثل هذا لا بد وان يجزنا في النهاية الى الوقوع في احضان منهج اللذة الذي يرحب جدا بهذا اللقاء بينه وبين الفن من جديد .

ويعقب كروتشه بقوله : « وهكذا ، اما ان لا يكون الفن حدسا خالصا ، وتظل المطالب التي أعربت عنها النظرية التي اعترضنا عليها غير متحققة ، وبهذا نفسه نرى اعتراضا ذاته على هذه المذاهب يتضعف بنتيجة ما ينبثق من شكوك . واما ان لا يكون الحدس مجرد خيال » . وهنا نصل مع الكاتب الى نقطة ، يحاول بها ان يخرج من هذه

الازمة التي أوقع نفسه بها ، فيقول كبدية للمخرج « فالحقيقة ان الحدس يجنح الى ايجاد صورة ، لها كتلة غير منسجمة من الصور مما يمكن الحصول عليه بتذكر صور قديمة او جعل الصور تتعاقب بعضها وراء بعض بفعل ارادي . . » وأول من قال بهذه الفكرة ، فكرة تمييز الحدس عن نزوات الخيال بالجنوح الى مفهوم الوحدة هي النظريات الافلاطونية في المعرفة « البونيطيقا » ، وهذا يعني ان يكون الاثر الفني بسيطسا واحدا ، والبونيطيقا تنزع كذلك الى مفهوم اخر ، هو مفهوم « الوحدة نبي التنوع » وما يقصده هنا ، هو ان تكون ثمة نقطة ميزة يدور حولها العديد من الصور ، فتظهر فيشكل صورة تركيبية .

وان كان كروتشه في البدء يحاول ان يبرهن لنا على ان الفن حدس ، فهو يعتمد الآن على العكس من ذلك تماما ، الى محاولة البرهنة على ان الحدس فن . يقول « ان الحدس يكون فنيا حقا ، يكون حدسا حقا لا كتلة مفككة من الصور ، حين يكون له مبدأ حيوي يحركه ويكون من صلبه » . . ويتساءل كروتشه : ما هو هذا المبدأ ؟

وقبل ان يعطينا الجواب - كدأبه في طرح كل فكرة او تساؤل - يطرح لنا قضية النزاع بين الكلاسيكية والرومانسية . ومن وراء هذا النزاع سنجد الجواب على التساؤل . فلقد شهد تاريخ الفن ، ولا يزال ، نزاعا بين طرفين يقفان على طرفي نقيض ، بين الكلاسيكي الذي يرغب في العواطف الباردة الهادئة والاهداف الاخلاقية والشخصيات المتزنة مائلا في ذلك كله الى التصور ، وبين الرومانسي الذي يريد الانكباب على ذاتية المرء وتصويرها تصويرا عنيقا يعبر عما يختلج في النفوس ، وذلك بأسلوب هو ومضات بضربات ريشة معبرة ، اكثر منه أسلوبا واضحا جليا .

أما المبدأ الحيوي الذي يكون فنية الحدس ، فستنتج انه « العاطفة » ، وذلك من قوله « ان العاطفة هي التي تهب للحدس تماسكه ووحده ، فانما كان الحدس حدسا حقا ، لانه يمثل عاطفة ، ومن العاطفة وحدها يمكن ان يتفجر الحدس » .

صدر حديثا

الفجر لزيد يعمران

للشاعر :

هلال ناجي

الديوان الذي يرهص بثورة العراق الاخيرة على الطاغية قاسم ويغني آمال الشعب العربي في العراق ونضاله في طريق الوحدة والاشتراكية والحرية .
قصائد من وحي ١٤ تموز وثورة الموصل وثورة ١٤ رمضان .

منشورات :

دار الآداب - بيروت
مكتبة النهضة - بغداد

الثلث ليرتان لبنانينتان

ويضيف كروتشه بعد ذلك تعريفا للفن هو خلاصة بحثه ، فيقول بلغة الواثق : « تشوف محصور في دائرة تصور : ذلكم هو الفن . وفي الفن لا يكون التشوف الا بالتصور ، ولا يكون التصور الا بالتشوف » .

— ٢ —

بعد هذا البحث التمهيدي نبي تعريف الفن ، نتناول بالدراسة « العمل الفني » في مادته ، وموضوعه ، وتعبيره بشيء من التفصيل ، تلك العناصر الثلاثة التي تكون العمل الاستنطقي . ولكن لا بد من الإشارة باديء ذي بدء ، الى ان للعمل الفني « بنية مكانية » تعد بمثابة المظهر الحسي الذي يتجلى على نحوه الموضوع الجمالي ، كما ان له « بنية زمانية » تعبر عن حركته الباطنية ومدلوله الروحي بوصفه عملا انسانيا حيا .

فاما بالنسبة لمادة العمل الفني اولا ، فاننا نقول مع الدكتور زكريا ابراهيم ان المادة الخام ، تبقى بعيدة عن الصبغة الفنية ، مالم تمتد اليها يد الفنان لتصيرها « محسوسا جماليا » ، ولكن هذه المادة غاية في ذاتها ، باعتبارها تتمتع بكييفيات حسية خالصة ، تساعد في خلق المحسوس الجمالي « فالحجارة التي قد صنع منها هذا التمثال او ذلك ، ليست مجرد حجارة ، وانما هي حجارة تبدي امام انظارنا احجاما خاصة ، وانسجاما في النسب ، وتأثيرات ضوئية معينة تظهر على سطوحها . الخ . وهذه المظاهر الحسية العديدة هي التي تذكرنا بان التمثال الذي نراه لا ينطوي على مادة خام ، بل هو ثمرة لعملية استنطقية قد عانتها المادة فاستحالت على يد الفنان الى مادة جمالية » .

ولا بد لكل عمل فني من ان ينتظم في عملية تنظيم العناصر التي تضم حركته ، وهذه الحركة هي التي تصفي عليه - كما سبق وذكرنا - طابعا زمانيا يجعل منه موجودا حيا تشيع فيه الروح ، وعلى الفنان ازاء عمله الفني الذي يتألف من « عدد » من الاشكال والحركات والصور ، ان يجمعه في « وحدة » من التناسق والانتظام والانسجام ، لكن بحيث لا تطفئ « وحدته » على « تعدده » ، ولا يطفئ بالتالي « تعدده » على « وحدته » بل ان يمتزج هذا التعدد وتلك الوحدة فيما نسميه « وحدة تنوع » وهي امتزاج عادل للوحدة والتنوع على حد سواء .

واما بالنسبة « لموضوع » العمل الفني ثانيا ، فاننا سنجد أنفسنا عند مفترق طريقين ، أما ان نوافق انصار « المضمون » الذين يقولون بان موضوع العمل الفني هو أساسه ، وأما ان نوافق انصار « الصورة » الذين يقولون - على العكس - بان صورة العمل الفني هي أساسه .

وطبيعي ان يكون فنانون النحت المجرد من اشياخ الصورة ، فهم يغفلون اهمية الموضوع ، ويذهبون الى انه ليس المهم في الفن ان يحاكي بعض الموضوعات ، بل ان يتخذ هذه الموضوعات « وسيلة لظهور ما في المحسوس من بريق وبهاء ورواء - كما يقول دوفرين » . فالفن عند هؤلاء وغيرهم ككل من « مور » و « بيكاسو » و « براك » بعيد عن محاكاة الطبيعة كل البعد . انه تلاعب بالصور والاشكال الهندسية المجردة . وعلى النقيض نجد فنونا اخرى لا معنى لوجودها بلا موضوع ، كالنثر والرواية والمسرحية ، الا ان هذا الاستهتار بالموضوع ، والاتجاه نحو التجريدية ليصبح العمل الفني أشبه بقطعة موسيقية ، هو اتجاه حضاري فني حديث .

وان الفيلسوف « كروتشه » يأتي على النزاع بين هاتين المدرستين: مدرسة الصورة ومدرسة المضمون ، بشكل مفصل ، فيرى ان فصل الصورة عن المضمون قد بدأ بشكل مذهب واسع النطاق في القرن التاسع عشر ، حيث انقسم فلاسفة الفن الى شطرين : ذهب المدرسة الاولى الى ان الفن كله مضمون ، وقد يلذ هذا المضمون للاخلاق او للسياسة او للمجتمع او للدين ، وذهبت المدرسة الثانية الى ان الفن كله صورة ، كله انسجام ووحدة وتناظر ، اما المضمون فليس له كبر أهمية .

ويرى الكاتب ان ذروة النزاع بين هاتين المدرستين قد بلغ أشده في ألمانيا ، لدى تلاميذ هيجل وتلاميذ هوبرت ، ويشير ان اننا نجد هذه

المذاهب في تاريخ فلسفة الفن وذلك في العصور القديمة والوسطى والحديثة وفي فلسفة الفن المعاصرة ، بل وحتى في احكام الرأي العام في كل مكان .

وفيلسوفنا لا يحيد احدي المدرستين على الاخرى ، بل هو ينقد المدرستين نقدا سواء ، ويرى ان ثمة جدلا في هذه الفلسفات الفنية يؤدي الى ان يصبح اشياخ المضمون على غير ما ارادة منهم - اشياخا للصورة ، والى ان يصبح اشياخ الصورة - على غير ما ارادة منهم كذلك - اشياخا للمضمون ، وذلك على غير ما استقرار ولا اطمئنان ، ثم يعود كل مذهب الى مذهبه على غير ما استقرار ولا اطمئنان كذلك .

وهكذا نصل مع كروتشه الى الحقيقة القائلة - ان كان ثمة حقيقة - « بان المضمون والصورة يجب ان يميزا في الفن ، لكن لا يمكن ان يوصف كل منهما على انفراد بانه فني ، لان النسبة القائمة بينهما هي وحدها فنية ، اعني الوحدة - لا المجردة الميتة - بل العيانية الحية التي ترجع الى التركيب العقلي ، والفن تركيب فني قلبي حقيقي ، تركيب للعاطفة والصورة في الحدس ، تركيب نستطيع ان نقول بصده ان العاطفة بدون صورة : عمياء ، والصورة بدون عاطفة : فارغة » .

واذا عدنا الى الدكتور زكريا ابراهيم ، وجدناه يتوجه بالحديث الى نقطة هامة جدا ، وهي : لماذا يختار الفنان هذا الموضوع دون ذلك ؟ الواقع ان ثمة جوابا لهذا السؤال ، وهذا الجواب يمدنا به علم النفس والباحثون السيكلوجيون . فعلم النفس لا ينظر الى العلاقات الظاهرية فحسب « اللهم الا في المدرسة السلوكية » بل هو يبحث كذلك عن العلاقات العميقة من شعورية ولا شعورية بين الطرفين ، الفنان وموضوعه الفني .

ان علم النفس يؤكد ان اختيار الطرف الاول « الفنان » للطرف الثاني « الموضوع » ليس اختيارا اتفاقيا عشوائيا ، بل ان ثمة علاقة وثيقة بينهما وبين الموضوع والابداع الفني . فكل موضوع يكون مجال عمل فني ابداعى بالنسبة للفنان ، لان هذا الموضوع يكون حيويا بالنسبة اليه من جهة ، ويشير في نفسه انفعالا نفسيا ما من جهة ثانية . واضيف الى ذلك قلبي ، انه من هنا جاءت فكرة ضرورة وضع الذات في العمل الفني ، ليأتي هذا العمل صادقا معبرا عن شخصية الفنان من خلال لوحاته . ثم يقول الدكتور زكريا في خاتمة بحث موضوع العمل الفني :

« وعلى كل حال فانه ليس من شأن الموضوع في العمل الفني ان يستثير التأمل بوصفه موضوعا ، وانما هو لا بد من ان يندمج في صميم التعبير الفني نفسه ، فلا يكون ثمة ما يستثير انتباهنا سوى العمل نفسه ، وهكذا تنتهي الى القول بان العمل الفني هو موضوع لذاته مادام ينطوي على تعبير فني » .

وعن الاسس المؤسس الثالث في العمل الفني ، عن « التعبير » ، يرى الكاتب بانه لا بد من ان ينضوي تحت لواء العمل الفني معنى ما ، وهذا المعنى هو الذي يعطي اماراة العمق في هذا العمل ، والفنان اذ يتوجه الى الموضوعات « بعيد تكوينه على حسابه الخاص » مانحا هذا الموضوع تعبيرا ذاتيا ما ، ليستحيل عندها هذا الموضوع ، من موضوع طبيعي او فني ، الى حقيقة ناطقة ذات دلالة بوساطة هذا التعبير الممنوح .

وئمة صعوبة في تحليل وتفسير هذا « التعبير » باعتباره امرا وجدانيا ، ذلك ان العمل المبرر **Expressif** يختلف عن العمل المؤثر **Emouvant** لان « التعبير » شيء

و « التأثير » شيء اخر . فعلى التأثير الوجداني الا يكون حجر عثرة في سبيل فهم العمل الفني السليم . وكان الدكتور زكريا ابراهيم يهيب بالمتنوق او الناقد الفني ، ان يكشف عن تعبيرية اللوحة الفنية ، الكشف الموضوعي الدائب دونما ادخال لعناصر تأثره الوجداني ، وفي هذا بعض الصعوبة كما ارى ، اذ انه من الصعوبة بمكان كشف تعبير فني كشفنا موضوعيا كل الموضوعية دون تدخل الانفعال الذاتي ، ولكن الكاتب يقصد في رأيه ذلك نظرة اخرى ، وهي انه لا ضرورة لوجود العامل المؤثر في العمل الفني لكي نعتبره عملا فنيا معبرا . ونستطيع ان نخلص معه الى نتيجة هي « ان الوظيفة الاساسية للتعبير انما هي ان يجعل من

المحسوس لغة اصيلة تحمل طابع « الطراز » او « الاسلوب » ولكنها لاتدين للمنطق بشيء » .

ولما كان كروتشه يقول بان الفن حدس ، فان بعض المفكرين ينفون كون الحدس معبرا ، وبالتالي يصبح الفن « الكروتشي » فنا لا معبرا ، وهذا ما يرفضه صاحبه ، لانه يرى في التمييز بين الحدس والتعبير تمييزا خاطئا ، فكيف نميز الصورة عن ترجمتها المادية ؟ كيف نضع صور الناس والمناظر والافعال في جانب ، ونضع في جانب ثان « الاصوات والانغام والالوان ؟ كيف نفرق بين الظاهر - الذي يعتبره مؤيدو التمييز انه الاداة - وبين الباطن - الذي يعتبره اولاء - انه الفن بالذات ؟ ذلك انه متى فصلنا بين الحدس والتعبير فقد حكمنا عليهما بعدم الاتصال بعد هذا الانفصال ، فلا يعود ثمة حد وسط يحاول ان يؤلف بينهما في وحدة تركيبية ، كما كانا قبل الانفصال .

ولكن كروتشه يحاول ان يجد حلا لهذه المشكلة القائمة بين الحدس والتعبير وذلك بان يذهب الى اصل المشكلة وجذورها ، فيبحث : هل كان تفريق العنصرين : الحدس والتعبير عن بعضهما صحيحا ، أي هل يمكن ان نتصور حدسا من غير تعبير ؟ وهي وسيلة تؤدي - بلا ريب - الى الحل السليم لعقدتنا الجديدة ، عقدة التمييز بين الحدس والتعبير . « والواقع اننا لانعرف الا حدوسا معبرا عنها » هكذا يقول لنا هذا الفيلسوف ، فالفكرة لاتكون فكرة الا اذا امكن التعبير عنها بالفاظ ، كذلك فان اللحن الموسيقي لايمكن ان يكون لحنا موسيقيا مالم يتحقق بانغام ، فالفكرة واللحن والصورة لاتوجد قط - خلافا لما يظن من انها توجد - بدون تعبير . ويحاول كروتشه تسف المشكلة من اساسها ، فيقول لنا ، اننا اذا فهمنا الفن على انه حدس ، لم يبق ثمة حاجة الى التفريق بين الجوهر المفكر والجوهر المتمد - على حد تعبيره - لان الجوهر المفكر ، أي الفعل الحدسي كامن في ذاته .

ولنا ان نشير الى طابع الكلية في التعبير الفني ، الذي يعتقد به الفيلسوف كروتشه ، فهو يرى ان كل تصور فني محض هو في الوقت نفسه هو والكون « كل كلمة تنفج بها شفتنا الشاعر ، وكل صورة من الصور التي يبدعها خياله ، تنطوي على المصير الانساني كله ، وتضم كل الامال والاهوام والالام والافراح والامجاد الانسانية ، تحوي الواقع فسي صيرورته ، في نموه الدائم ، وهو يخرج من ذاته عذابا وسعادة » . ولا يسمنا ههنا الا ان نعقب بان كروتشه متطرف تطرفا تسفطه الواقعة الفنية والتعبير الفني غير الشمولي بهذه الدرجة للكون .

والحقيقة عنده ، هي ان العمومية والصورة الفنية ليسا شيئين بل هي شيء واحد ، ذلك ان صب المضمون العاطفي في صورة فنية يعني

اضفاء الطابع الكلي عليه ، ونفخ النفخة الكونية ، فالوزن والبحر والقافية والاستعارة .. انما هي جميعا مرادفات للصورة الفنية التي اذ تفرد، تدخل الفردية على انسجام في العمومية .

- ٣ -

تعارضت آراء علماء الجمال والنقاد والفنانين ، حول ما اذا كان الفن محاكاة للطبيعة ، أم ابداعا ذاتيا يتمرد على الاشكال الطبيعية ؟ . ويأتي على رأس الفريق الاول المنادي بمحاكاة الطبيعة ، الفيلسوف الفرنسي جان جاك روسو ، الذي نادى بتمجيد الطبيعة ، فكان مذهبه اول مذهب فلسفي في العصر الحديث يتوجه بالعبادة الى الطبيعة ، بيد ان هذه النزعة الفلسفية سرعان ماتحولت الى نزعة فنية تقول بتكامل الشكل الطبيعي « فاننا لانجد في الطبيعة بأسرها ادنى خطأ في الرسم - كما يقول رينان - حتى ان « روسكن » نادى الفنانين الى الخضوع للطبيعة الخضوع الاعمى دون ادنى اختيار او انتقاء ، لان الفن الكامل انما هو الانكاس الكلي للطبيعة جمعاء ، وبالمقابل فان الذي ينتقص وينتقي انما هو فن ناقص .

يقول « رودان » موجها حديثه الى شباب المثاليين : « لتكن الطبيعة آلهتكم الوحيدة ، ولتكن تقنم فيها مطلقة ، ولتعلموا علم اليقين ان الطبيعة ليست قبيحة على الاطلاق ، بل حسبكم ان تقصروا همكم على الولاء لها .. فلتكن دراستكم اذن بروح الايمان والتدين ، لانكم عندئذ تعجزون عن الاهتداء الى الجمال ، بل انكم لا محالة واقفون على الحقيقة (١١) » .

وان كانت نظرة « روسو » الفلسفية قد تحولت الى نظرة فنية فيما بعد ، فان نظرة « روسكن » الفنية سرعان ما امتزجت بلون من الوان الفلسفة الواقعية التي بلغت اوجها في النصف الاخير من القرن الماضي ، فمثلا ، يهيب المصور الفرنسي « كوربيه » بالفن ان يصور واقع الحياة فقط ، لا ان يرجع الى الماضي السحيق او المستقبل البعيد ، بل ان يعيش الفن الواقع ، ف « كوربيه » بهذا يحمل لواء الواقعية في مضمار الفن . ولكن الفنان الناقد « ويسلر » لا يوافق « كوربيه » وجماعته نظرتهم هذه ، لان الطبيعة في رأيه لاتقدم لنا لوحات فنية ، انه لاينكر انها تحوي « مواد خام » طبيعة فنية ، ولكن على الفنان الا ينقل مواضع هذه المواد الخام كما هي في الواقع ، بل عليه ان يميز ويؤلف بينها ، ليدع بعد ذلك اثرا استيقيا . والواقع - كما يقول الدكتور زكريا ابراهيم - لو كانت مهمة الفن مقتصرة على محاكاة الطبيعة ، لكان فن التصوير الشمسي « الفوتغرافي » هو الوريث الشرعي لكافة الفنون الجميلة .

اذن هل نقول ان الفن وسيط بين الطبيعة والانسان ، مؤيدين دعوى المحاكاة « هذا ما يريده الشاعر الانكليزي « كولردج » الذي يقول من نص له بعنوان « الفن وسيط بين الطبيعة والانسان » : « الفن بمعناه العام الذي يشمل الرسم والنحت والعمار والموسيقى ، هو الوسيط بين الطبيعة والانسان ، وهو الذي يوفق بينهما ، انه اذن القوة التي تضفي على الطبيعة عنصرا انسانيا ، وتخلع افكار الانسان وعواطفه على كل ما يصلح ان يكون موضوعا لتأملاته ، واللون والشكل والحركة والصوت هي العناصر التي يجمعها الفن ويشكلها ويخلق منها الوحدة حين يفرض عليها معنى خلقيا عاما .. » ويضيف كولردج بعد ذلك « نحن جميعا نعلم ان الفن يحاكي الطبيعة » . وهو يرى انه لا بد من وجود عنصرين معا في المحاكاة ، هما التشابه والاختلاف ، ولا بد من اتحاد هذين العنصرين المتقابلين في كل انتاج فني اصيل : ان الصورة التي يتركها الختم في الشمع ليست محاكاة ، وانما هي تقليد او نسخة منقولة عن الاصل ، بينما الختم ذاته هو المحاكاة . ويجب علينا - كما يقول شاعرنا هذا - ان نحاكي الطبيعة ، « نعم ، ولكن أي ناحية في الطبيعة ؟ انحاكي الطبيعة

(١١) مشكلة الانسان : الدكتور زكريا ابراهيم (سلسلة مشكلات فلسفية) .

في الاسواق

عينك قدرتي

قصص

بقلم غادة السمان

منشورات دار الاداب

الثلث ٣ ل.ل

سلسلة المسرحيات العالمية

سلسلة جديدة تقدم فيها دار الاداب مجموعة رائعة من اشهر المسرحيات العالمية التي وضعها كبار كتاب المسرح

صدر منها :

١ - البغي الفاضلة وموتى بلا قبور

بقلم جان بول سارتر
ترجمة الدكتور سهيل ادريس والحامي جلال مطرجي
الثنى ٢٠٠ ق.ل

٢ - ماريانا

تأليف فديريكو غارسيا لوركا
ترجمة شاكرا مصطفى
الثنى ٢٠٠ ق.ل

٣ - هيروشيمما حبيبي

تأليف مرغريت دورا
ترجمة الدكتور سهيل ادريس
الثنى ٢٠٠ ق.ل

٤ - لكل حقيقته

تأليف لويجي بيراندلو
ترجمة جورج سرايشي
الثنى ٢٠٠ ق.ل

٥ - تمت اللعبة

تأليف جان بول سارتر
ترجمة مجاهد ع. مجاهد
الثنى ٢٠٠ ق.ل

منشورات دار الاداب - بيروت

بأسرها ؟ ويجب كولدج على تساؤله « لا . . وانما ما في الطبيعة من جمال » ويعود الى التساؤل « ولكن ماهو الجمال اذن ؟ وما طبيعة الشيء الجميل ؟ » ويجب « في صيغة مجردة : ان الجمال هو تحويل الكثرة الى الوحدة ، ومزج العناصر المختلفة . وفي صيغة محسوسة ، انه اتحاد المنسق او البديع الحيوي (١٢) .

وللفيلسوف الحنسي « برغسون » رأي خاص في هذه العلاقة بين الفن والطبيعة ، يقول بعنوان « الفن والطبيعة » : « بيد ان الطبيعة لتجذب من بعيد عن طريق اللهو طائفة من النفوس التي قد استطاعت ان تتجرد عن الحياة ، ولست اتحدث عن ذلك التجرد او الانفصال الارادي العقلي المنهجي الذي هو وليد التفكير والتأمل الفلسفي ، بل انني اعني ضربا من التجرد الطبيعي المفطور في طبيعة الحواس او الشعور . وهو تجرد يتجلى في الحال على شكل أسلوب عذري - ان صح التعبير - في النظر والاستماع والتفكير ، ولو قدر لذلك التجرد ان يصبح كاملا ، او لو تهبأ للنفس الا تتعلق بالفعل في أي ادراك حسي من ادراكاتها لكنها ازاء نفس فنانة ، لم يشهد لها العالم نظيرا من قبل ، ومثل هذه النفس لايد من ان تكون ممتازة في جميع الفنون على السواء ، او هي بالاحرى لايد من ان تكون قديرة على ادماج شتى ضروب الفن في فن واحد شامل ، وعندئذ لايد لتلك النفس من ان ترى الاشياء جميعا في صفاتها الاصلية ، فتدرك اشكال العالم المادي والوانه واصواته ، كما تدرك ادق حركات الحياة الباطنة (١٣) .

وان كان بعض النقاد والفلاسفة والشعراء يرون في الفن محاكاة للطبيعة ، فان افلاطون - فيما لو عدنا الى الوراء - يرى فيه محاكاة المحاكاة بالنسبة للحقيقة . فالفن عند صاحب كتاب « الجمهورية » بعيد عن الحقيقة ثلاث مرات لانه « محاكاة المحاكاة » . ولكي يوضح افلاطون هذه الفكرة ، ضرب مثلا بالسريير ، فهناك السريير الاول وهو المثال الذي خلقه الله ، وهناك السريير الثاني الذي يعد محاكاة لمثال السريير الاول وقد خلقه النجار ، وهناك اخيرا السريير الثالث كما يرسمه الفنان ، فهو بعيد اذن عن الحقيقة ثلاث مرات ، فنحن اذا حاولنا رسم أي شيء فانما نرسم المظهر فقط لا الجوهر ، فالرسم محاكاة للمظاهر لا للحقائق (١٤) .

ولكن هل وافق بقية المفكرين والنقاد على ان يكون الفن محاكاة للطبيعة ؟ لقد عرضنا جانبا من الموضوع ، وما علينا الان سوى ان نعرض الجانب الاخر ، لنرى مارأي المعارضين لهذه النظرية الفنية الكبرى . والحق انه « لم يكن الفن في أي عصر من العصور مجرد تقليد للطبيعة ! ان الفن مأخوذ عن الطبيعة ، ولكنه بدلا من ان يكون تقليدا لها ، نجده تحليلا للطبيعة او اعادة تركيب لعناصرها او تعليقا عليها او ممازجة معها . قد يقول البعض ان سلبية الفنان امر جوهري ازاء الطبيعة ، أي ان عليه ان يسمح لها بان تفعل في نفسه ماتشاء ، ولا يقتحمها هو عنوة . بيد ان الفنان - الا اذا كان سخيفا احمق - لن يستطيع ان يكون الصورة الفوتوغرافية السالبة ، فهو قد يفسح المجال للطبيعة لكي تفعل بنفسه ماتشاء اذ يستسلم لها ، ولكنه يصور فعلها في نفسه اكثر مما يصورها هي ، او قد يعالج عناصرها ، اذ تفعل في نفسه كمادة خام ، له ان يكيفها حسبما يبغى ، كما يفعل الموسيقي بالاصوات الطبيعية حين يحولها الى انغام لم تكن معروفة من قبل (١٥) . وفي كتاب اخر للدكتور زكريا ابراهيم ، يعرض فيه السراي الفائل باللامحاكاة كما عضده من قبل صاحب « الحرية والظوفان » يقول

- التتمة على الصفحة ٥٥ -

- (١٢) كولدج : الدكتور محمد مصطفى بدوي (سلسلة نوابغ الفكر الغربي - ١٥ -) .
(١٣) برغسون : الدكتور زكريا ابراهيم (سلسلة نوابغ الفكر الغربي - ٣ -) .
(١٤) افلاطون : الدكتور احمد فؤاد الاهواني (سلسلة نوابغ الفكر الغربي - ٥ -) .
(١٥) الحرية والظوفان : جبرا ابراهيم جبرا .

دراسة مشكلة الفن

- تنمة المنشور على الصفحة ٣٧ -

الاول « وليس الفنان وحده هو الذي يستشعر هذه الضرورة الملحة للصراع ضد الطبيعة ، وانما نحن نجد هذه الرغبة العارمة في مواجهة العالم والتحكم فيه والسيطرة عليه ، لدى كل انسان كائنا ما كان ، وأية ذلك ان الانسان لم يقنع في أي عصر من العصور بالاستسلام للطبيعة والخضوع للقوى الطبيعية والتعبد للعالم الاكبر ، بل هو قد حاول في كل زمان ومكان ان يفرض نفسه على الطبيعة وان يحد من شوكة القوى الطبيعية ، وان يؤكد حقها في الوجود بازاء « العالم الاكبر » بوصفه ذلك « العالم الاصغر » الذي تدور حوله شتى العوالم الاخرى (١٦) . وهكذا ينادي هذان الكاتبان ، وغيرهما كثير ، باللاسلبية ، باللامحاكاة وهو نداء ايجابي يدعو الى الابداع الذاتي بصورة مباشرة .

وتنخطى هذه النقطة ، بعد هذه الوقفة ، فنعود الى « مشكلة الفن » لنجد كاتبه يتحدث عن دخول ذات الفنان في عمله الفني عند الفنان « ادوار مانيه » هذا الفنان الذي مزج النزعة الطبيعية بالنزعة الانطباعية وان شرح لنا صاحب « سلسلة المشكلات الفلسفية » النزعة الطبيعية ، واوردنا موجزا عنها فيما سبق ، فاننا نضطر لآخذ شرح للنزعة الانطباعية من صاحب « الحرية والطوفان » . يقول الناقد :

« الانطباعية حركة فنية بدأت في الظهور في اوائل الثلث الاخير من القرن التاسع عشر ، ولم يعجب الناس اول الامر برسوم الفنانين الانطباعيين لان هؤلاء اخذوا يحاولون تمثيل حقيقة الطبيعة بشكل جديد غير معهود من قبل ، لقد اخذوا يحللون الضوء ، ويدرسون آثاره على الاشياء في ساعات النهار ، وقد خرجوا من الرسم الى العراء ، ضاربين لوحاتهم بألوان براقية زاهية . وبعد بضع سنوات لاقت لوحاتهم بعض الاستحسان من الجمهور الذي بدأ يتذوق هذه اللوحات ، وتتطور الانطباعية هنا منحصرة في محاولة التلاعب بألوان الطبيعة في النهار ، وتحول اكثر ما يراه الفنان الانطباعي من اشياء واشكال ، وكان مسن زعماء هذه الحركة « مونييه » و « مانيه » و « سزلي » و « بيسار » وعلى رأسهم جميعا « سيزان » الذي اخذ يعبر عن شخصيته في لوحاته الفنية الراقية التي رسمها واشهرها « لاجبو الورق » و « قرية ليستناك » (١٧) . وان رأى الدكتور زكريا ابراهيم في « سيزان » فناً انطباعياً يضع شخصيته في لوحاته ، فان الناقد جبرا ابراهيم جبرا يرى ان هذا الفنان لا يقحم عواطفه فيما يرسم ، بل يراه بانه هو الذي مهد للحركة التكعيبية ، وبعبارة اخرى ، انه انبثقت عن سيزان هذه الحركة الفنية المعاصرة : التكعيبية .

الا ان هذه الانطباعية تتعرض لنقد الفنانين المحدثين منهم « فوغان » الذي ذهب الى ان الصورة لا توجد في الطبيعة وانما هي بالاحرى موجودة في الخيال « وكان هذا يعضد رأي الناقد الفلسفي كولنفورد - الذي ذكرته فيما سبق - ذلك ان الاسم الصحيح للفن هو الخيال » ، و« فوغان » يلج دائما على ان تكون لوحات الفنان مسحة من شخصيته وعقليته المستقلة وفردية نفسيته . ويرى الدكتور زكريا ان فوغان مهد في الفن الحديث لظهور النزعة الرمزية فلم تلبث النزعات الانطباعية ان اخلت السبيل للنزعات التعبيرية على نحو ما تبنت عند « ماتيس » و « فان جوج » و « جورج رووه » .

ولم تقف موجة نقد الاتجاه الطبيعي في الفن عند فوغان ، بل امتدت الى العصر الحاضر . يقول الناقد المعاصر « بابلو بيكاسو » : « اننا نعرف جميعا ان الفن ليس هو الحقيقة ، وانما هو كذبة تجعلنا نندرك

(١٦) مشكلة الانسان : الدكتور زكريا ابراهيم .

(١٧) مجلة المعارف - السنة الاولى - العدد الخامس (علم الفن) .

الحقيقة ، او على الاقل تلك الحقيقة التي كتب لنا ان نفهمها . » ويأتي الكاتب على رأي بيكاسو يخالف به آراء المثقفين عامة في هذا الفنان المعاصر ، فان اعتقد هؤلاء ، من نقاد ومتذوقين ، ان بيكاسو داعية الى الفن التجريدي الحديث ، فان بيكاسو يقول « على الرغم من رسوميه التجريدية » : « انه ليس ثمة فن مجرد » . ويضيف « فانك لا تسد بالضرورة من ان تجعل هذا الشيء او ذاك نقطة انطلاق لك ، ولكنك تستطيع من بعد ان تعود فتمحو كل آثار الواقع » .

وان كنا منذ قليل نورد النقد تلو النقد لنظرية المحاكاة ، فان نظرية « مالرو » في الفن تحارب بعنف نظرية المحاكاة ، لقد حاولت هذه النظرية ان تؤكد النزعة الانسانية في كل فن ، وذهب صاحبها الى القول بان الفن هو ابداع لقيم انسانية يخلق الفنان بمقتضاها عالما غريبا عن الواقع ، دون ان يكتسب في شيء بالحقيقة الموضوعية او الوجود الخارجي . ف « مالرو » اذن ، لا يجذب الفن الكلاسي لان هذا الفن قائم على المحاكاة ، والفن عند صاحبنا ابداع ما يكون عن المحاكاة .

واما الفنان « الماروي » فانه يقوم بعملية الاختزال عندما يتوجه الى الطبيعة فيرى فيها ماله علاقة بالآثار الفنية ، فيأخذ الصورة لا كما هي في واقعها ، بل يختصرها او يجتزئ منها فيسبل ويغير ، كالمثال الذي « يفرض على الموضوع ضربا من التحوير حين يحول كل حركة مضمرة او صريحة فيه الى ضرب من السكون او الثبات » وهذا ما يخالف به « مالرو » الناقد « رسكن » الذي قال - وذكرته قبل قليل - بالخضوع الاعمى للطبيعة دون ادنى اختيار او انتقاء ، لان الفن الكامل - عند رسكن - انما هو الانعكاس الكلي للطبيعة جمعاء ، وبالمقابل ، فالفن الذي ينتقص وينتقي ، هو فن ناقص ، وهذا كما هو بين للعيان ، يخالف كل المخالفة آراء « مالرو » القائمة على العكس تماما .

ولا بد اخيرا من الاشارة الى تحليل مالرو للفنان منذ بدايته سنه الفنية الاولى ف « حياة كل فنان انما تبدأ بالنقل عن لوحات كبار المصورين او محاكاة أسلوب غيره من كبار الفنانين ، ولا شك في ان هذا النقل هو في صميمه مشاركة ، ولكنها مشاركة في الحياة ، بل مشاركة في الفن « فالنقل اذن عن لوحات الفنانين الكبار ، انما هو لون من الصداقة والاخوة التي تجمع بينها صنعة الفن الانسانية السامية ، هي الصفة التي تتمثل في عمل فني لا يصور الواقع التصوير الدقيق بلا عملية اختزال او تحرر ، بل الفن كل الفن يكمن في اللوحة التي تنقلنا الى عالم اخر غير هذا العالم الواقعي ، وهذا ما يجذبنا الى اللوحة الفنية اكثر من أي سبب اخر .

« وهكذا - يقول الدكتور زكريا ابراهيم - قد يكون في وسعنا ان نقول ان علاقة الطبيعة بالفن ليست علاقة السيد بالسود ، او علاقة الصورة بالمرآة ، وانما هي علاقة العالم الطبيعي الزائل بذلك العالم الانساني الذي يلتمس الخلود عبر الصور المخلوقة » .

- ٤ -

ثمة مقابلة اخرى ، غير المقابلة بين الفن والطبيعة ، وهي بين الفن والصناعة ، فكثير من الفلاسفة وعلماء الجمال والنقاد يقولون بوجود علاقة صميمة بين هذين الطرفين ، وبالعكس ، قد نجد من الفلاسفة وعلماء الجمال والنقاد - وهم أقل من أولاء - من يقول بعدم وجود هذه العلاقة . اذن ، فلنعرض الموضوع على بساط البحث .

ولو بدأنا بالبحث من أفلاطون لوجدنا أنه « لم يكن يفرق بين الفنون الجميلة وغير الجميلة كما نفعل الان ، فلغة الفن تدل على الصناعة ، كما تدل على الفنون الجميلة ، فالنجارة والحدادة والبناء وما الى ذلك من الصناعات التي يضرب بها المثل في شتى المحاورات تعد من جملة الفنون ، وهي كلها ترجع الى ابداع الفنان (١٧)

كذلك ، قال عن الفن بانه صناعة الفيلسوف العربي « ابن خلدون » وذلك من عنوان احد فصوله « الفصل الثاني والثلاثون - في صناعة

(١٧) تأكيد لما جاء في الجزء الاول من هذا البحث : من كتاب

أفلاطون : الدكتور احمد فؤاد الاهواني .

الفناء» وذلك في « الجزء الاول من كتاب العبرو ديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر » كما جاء بالحرف الواحد في صدر مقدمته المشهورة .
وعندما يطرح الدكتور زكريا ابراهيم هذا الموضوع للنقاش ، يصرح بادئ ذي بدء على تسمية موضوع الفن « بالموضوع الجمالي L'objet esthétique وتسمية موضوع الصناعة « بالموضوع الاستعمالي L'objet usuel

واننا لو نظرنا الى الموضوعين من ناحية « الفائية » لوجدنا أن الموضوع الاستعمالي يبدو ذا غائية نفعية ، فهو موضوع لاداء خدمة أو وظيفة ، وهو في الوقت نفسه لا يحمل مطلق صبغة تعبيرية ، بينما الموضوع الجمالي ، لا يحمل الفائية النفعية بقدر ما يحمل الصبغة التعبيرية . واذا كان الموضوع الاستعمالي يدفعنا الى استخدامه بحكم وجوده وغاية هذا الوجود ، فان الموضوع الجمالي هو موضوع تأمل وتذوق واستطلاع ليس الا ، أي أنه لا يؤدي تلك الوظيفة النفعية التي يؤديها ذلك (اللهم الا وظيفة خدمة الفلسفة - كما يرى أفلاطون (18) .
ولكن ليس في استطاعة الموضوع النفعي أن يصبح موضوعا جماليا ، كما أن في استطاعة الموضوع الجمالي ان يحقق بعض الوظائف النفعية؟ . هذا ما يرد عليه بعض علماء الجمال بالإيجاب ، كعالم الجمال « غيو » الذي وحد بين الجميل والنافع ، فاعتبر كثيرا من الآلات التي تستعملها اليد البشرية جميلة . ومن هنا جاء اعتبار بعض الابنية أعمالا فنية ، فها هو « بول فاليري » يقسم الابنية الى ثلاثة أقسام : ابنية صامتة لا تتكلم ، كالتي لا تستحق سوى اللا اكرات ، وابنية ناطقة تتكلم ، كابنية المعابد التي توحى بالخشوع والهبة الالهية ، وابنية صداحة تفنسي ، كالآثار الفنية الرائعة « وكانما هي أنغام سماوية قد صيغت من حجارة » وهي عند فاليري « ابنية الفن وحده » .

ونستطيع أن نطرق المقارنة من زاوية « صاحب » كل من العمل الفني والعمل الجمالي ، فكلاهما مثلا من نتاج اليد الإنسانية ، لكنهما يفترقان في أن العمل الصناعي ان هو الا وليد العقل الخالص ، وهو بالإضافة الى ذلك ابن تصميم آلي ، بل هو نتاج عملية ابداعية لتصوير الطبيعة من طبيعة الى روح ناطقة . فبالنسبة لصاحب كل منهما نقول بأن « الصانع » في العمل الصناعي هو محقق لوظيفة ذلك الموضوع ، ولولاه لبقى الموضوع مجردا بلا معنى بل بلا وجود ، أما « الصانع » في العمل الفني ، فانه يظل كامنا في عمله الفني يشعر به كل انسان في كل زمان ومكان ، وهذا ما يطلق عليه الدكتور زكريا ابراهيم اسم : الحضرة الحية

ونستطيع أن نلج كذلك بابا آخر من أبواب هذه المناقشة ، فننتحدث عن « لفة » كل من الموضوعين الاستعمالي والاستيطقي ، فمما لا شك فيه أن « لفة » الموضوع النفعي الاستعمالي هي لفة عامة لا تعطي مطلق تعبير شخصي عن مبدعه ، بينما « لفة » الموضوع الفني الاستيطقي كلها تعبير عن شخص الفنان الذي أبدع لوحته ، ومن هنا جاءت دراسة البعض من النقاد للوحات ثابته بضية الوقوف على نقاط عديدة في نفسياتهم ، لا تكشفها سوى اللوحات التي انما تأتي في السواد الاعظم ، معبرة عن ذاتياتهم .

فهل يكون معنى هذا أنه ليس ثمة علاقة بين الفن والصناعة ، أو بين الموضوع الجمالي والموضوع الاستعمالي ؟ أسنا نلاحظ أن كثيرا من علماء الجمال المعاصرين يميلون الى القول بأن الفنان هو أولها وقبل كل شيء « صانع Artisan »

وأستطيع أن أضيف ملاحظة جديدة على ما ذكر ، وهي تمزج الرأي القائل بالصلة القائمة بين الفن والصناعة . فبالنظر الى اللغة الاجنبية ولتكن الفرنسية مثلا ، نجد أنها عبرت عن « فنية » الفنان ، و « فنية » الصانع في آن واحد ذلك أن كلمة « الفن Art » موجودة كمقطع أصلي وأساسي في كل من كلمة « الفنان Artiste » وكلمة « الصانع

Artisan » فكان اللفة في أساسها قد أقرت بفنية الموضوع الاستعمالي ، كإقرارها بالضرورة والطبيعة ، بفنية الموضوع الفني . نعود بعد هذه الإشارة الكشفية اللغوية - ان صح التعبير . . الى الدكتور زكريا ابراهيم ، لنتحدث بشيء من الإيجاز - كدأبنا لصيق المجال - عن نظرية عالم الجمال الفرنسي « سوريو » في الفن ، ونقده للنظريات الاخرى .

فمن المعروف أن بعضا من الفلاسفة وعلى رأسهم «كانت ، ودركهايم ، وشيلر ، وسبسر » يقرنون الفن بالهيو ، فيعتقدون أن الفن لا يحقق مطلق وظيفة باعتباره لونا من ألوان الفن . يقول الفيلسوف « غويو » عن « كانت » في هذا الصدد ما يلي : « فكان كانت أول من جعل فكرة الجمال متعارضة مع فكرة الفائدة وفكرة الكمال ، حتى لقد بالغ في ذلك ، فرد الجمال الى النشاط المجرد عن الغرض ، المنزه عن المنفعة ، وأرجعه الى نوع من اللب الحر يقوم به الخيال ويقوم به العقل » ويتابع « وقد ذهب شيلر هذا المذهب نفسه ، وقال بهذا الرأي عينه ، ولكنه زاده وضوحا ، وخلص منه الى القول بأن جوهر الفن لعب » . وبعد ذلك بين لنا غويو كيف أن هذه النظرية قد سرت لدى كبار الفلاسفة في عديد من البلدان الأوروبية « ففي فرنسا نرى تلاميذ كانت وتلاميذ سبسر يتفقون على أن لذة الجمال ولذة اللعب صنوان ، وفي المانيا نرى مدرسة شوبنهاور تعد الفن نوعا ساميا من اللب ، وظيفته ان يعزينا عن مبادئ الوجود بضع لحظات ، وأن يهيئنا لتحرر اكمل يتم بالاخلاق » (19) .

ولكن « سوريو » يبين لهؤلاء ولغيرهم ان الفنان « صانع » محترف ، وظيفته هي الفن ، كأي « مهني » آخر ، فالفن على هذا الاساس ضرب من النشاط الصناعي ، فلا يجوز اعتباره بحال من الاحوال لونا من ألوان اللعب قط ، بل أن عالمنا الجمالي هذا يقول في كتاب له بعنوان « مستقبل الاستيطقا : ان للفن وظيفة اجتماعية تنحصر في امداد المجتمع ببعض الموضوعات الخاصة . وبدلا من ان يفرق « سوريو » كالأخرين بسين الموضوعين النفعي والجمالي تفرقة أساسية ، يرى ان هناك تفرقة أخرى تقوم على التمييز بين العمل « الادائي » والعمل « الفني » ، ففي الوقت الذي تكون فيه مهمة الصانع تنحصر في مسيطرة الآلة دونما ادخال « لشخصيته » في عمله ، نجد ان الفنية تنتفي عن العمل الفني ، ان سائرته آلية من الآليات ، ذلك أن الانسان - الفنان انما يعبر عن شخصيته من خلال عمله الفني ، فان قام بعمل آلي لا شخصي ، فكأنه لم يخلق قط موضوعا استيطقا .

والنتيجة - كما يقول ويسمان - هي أنه لها موضع للفصل التام بين الفن والصناعة ، لان الفن هو لباب الصناعة ، أو هو الصناعة في أسمى صورها ، أو هو العمل التين الذي يستحق عن جدارة لفظ الصناعة أو التكنيك .

- 5 -

لنتقل الآن الى دائرة أخرى شقيقة من دوائر هذا البحث الفلسفي - الاستيطقي فننتحدث عن مكان الفن في الفكر ، بعقد مقارنة بينه وبين العلم ، وبينه وبين الاخلاق ، متعرضين الى نظرية « الفن للفن » ومناقضتها ، كذلك سنتحدث عن « فردية » أو « اجتماعية » الفن ، أي بصريح العبارة ، سنبحث : هل للفن وظيفة اجتماعية ؟ وما هي هذه الوظيفة ؟

لقد حاولت بعض النظريات المفهومية - على حد تعبير كروتشه - ان تمزج بين الفن والعلوم الاخرى ، كمحاولة « شلنغ وهيجل » ، بالتوحيد بين الفن وبين الفلسفة والدين ، ومحاولة « تين » بالزج بين الفن وبين العلوم الطبيعية ، وكذلك كمحاولة « مذهب الحقيقة » الفرنسي بالمرج بين الفن والملاحظة التاريخية ، فهل الفن مستقل أو لا مستقل إذن ؟

(19) مسائل فلسفة الفن المعاصرة : ج.م. غويو (ترجمة سامي

الدروبي) .

(18) نفس المصدر السابق .

والحق ان الجملة الاخيرة من قول روسكين تجسد واقع كل من العلم والفن تجسيدا حقيقيا .

واما عن علاقة الفن بالاخلاق ، فاننا نطالع للفيلسوف شوبنهاور رأيا خاصا كذلك في هذا الصدد ، فهذا الفيلسوف المشائم مؤمن بالفن الايمان الذي يجعله وساطة التحرر من الالم . يقول الفيلسوف في هذا الموضوع بالذات « على أنه يتفق احيانا للمعرفة الانسانية ان تتحرر من خدمة الارادة الكلية ، وذلك حين نستغرق في التأمل الفني ، فيزول الشعور بالفردية فتؤثر عليها الفرية . فالفن والاخلاق هما وسيلتان للتحرر من الالم » (٢٢) وعندما يصنف شوبنهاور الفنون ، ينعت فنا - سنذكره في حينه - بأنه يمثل الاخلاق : ففن « العمارة » يأتي في الدرجة الدنيا من الفنون وتليه « الفنون التشكيلية » ، واما فن « التصوير » فانه يمثل الاخلاق أي مختلف وجهات الانسان في مختلف الظروف . ونحن لو تابعنا هذا التصنيف لوجدنا ان « الشعر » يوحى بالمعاني بواسطة الالفاظ ، واما الموسيقى - في العلية - أخيرا ، فهي فن يستغني عن كل صورة مكانية ويتخذ صورة الزمان .

ويشرفنا جدا ان نقول مع « كروتشه » ان كل شاعر يكون أخلاقيا في اللحظة التي يدع فيها ما دام يقوم بواجب مقدس . ولا يحق لنا اطلاقا - برأي هذا المفكر الناقد - ان نعم الفنان من الناحية الاخلاقية بأنه مذب ، ولا من الناحية الفلسفية بأنه مخطيء ، حتى ولو كانت مادة فنه أخلاقا منحطة أو فلسفة منحطة ، فهو كفنان لا يعمل ولا يفكر وانما يعرض ويفني ، أي يعبر .

وأستطيع أن أخلص مع القارئ ، الى أن كروتشه من أصحاب نظرية الفن للفن ، ولقد حاول - كما سبق وذكرنا - ان يهدم دعائم نظريتي الفن للفن ، والفن للمجتمع ، ولكنه الآن يقع - كما هو بين للعيان - في حبال نظرية الفن للفن وهل أدل علي ذلك من قوله « فهو

(٢٢) تاريخ الفلسفة الحديثة : يوسف كرم (بحث شوبنهاور) .

ورأي المفكر كروتشه في هذا الصدد هو ان مفهوم استقلال الفن هو « مفهوم نسبة » ، بمعنى ان كل صورة وكل مفهوم خاص هو مستقل من ناحية وغير مستقل من ناحية أخرى ، أي هو مستقل وغير مستقل في آن واحد . اما الاستقلال المطلق للصورة الفنية ، فغير وارد اطلاقا ، ذلك ان الصورة نفسها تكون في هذا الاستقلال المطلق فارغة تماما .

ويشير هذا المفكر الإيطالي ، الى اننا لو درسنا الموضوع دراسة اجمالية عامة ، لتصورنا استقلال مختلف صروب النشاط الروحي ، وعدم استقلالها بشكل صلة شارط بشروط « هذه الصلة التي يفوق فيها الشرط شارطه لانه يفترض مقدما ، وحين يصبح بدوره شارطا ويبعث على وجود مشروط جديد يؤلف سلسلة في حالة تطور » .

والفن عند صاحبنا ينطوي - نظرا لوحدة الفكر - على كل ذلك (يقصد التاريخ والرياضيات والاخلاق واللذة ..) وعلى كل ما عدا ذلك كذلك . ولكنه يجد مخرجا من هذا المأزق ، فيذهب الى أن الاخلاق والمنفعة واللذة والالم تكون في الفن ، من حيث هو فن ، اما كسوابق واما كإلحاق ، وتفسير ذلك أنها موجودة فيه اما كعناصر مفترضة مقدما او متوجسة متأخرا ، وبدون هذا العنصر المتوجس متأخرا ، لا يكون الفن هو الفن .

وحسبنا أن نشير ههنا ، الى الومضات الفكرية التي تشع في سماء هذا البحث ، فنأتي على علاقة الفن بكل من العلم والاخلاق .

فمن الناحية الاولى ، يقول « كروتشه » ان مسألة علاقة الفن بالعلم او الخيال بالمنطق ، انما هي في واقع الامر ، تتعلق بطريقة التمييز بين الشعر والنثر ، وقد يروق لنا هذا الانتقال اللامنطقي ، او لا يروق ، وسواء كان هذا حالنا أو ذلك ، فان مفكرنا يتابع حديثه دونما مطلق تليل او تفسير ، على غير ما عادته ، ونحن لو سلمنا معه بان الفنون او الخيال انما يلميه الشعر ، وبأن العلم او المنطق انما يحتله النثر ، فينبغي لنا ان نقيم تمييزا بينهما لا على أساس المنظوم وغير المنظوم ، بل على أساس أعق ، فنعتبر الشعر تعبيرا عن الصورة ، ونعتبر النثر تعبيرا عن الحكم او المفهوم ، والتعبيران عن الكاتب ، من حيث هما تعبيران ، هما من طبيعة واحدة ، ولهما كذلك قيمة فنية واحدة ، ومن هنا نلمس اعطاء كروتشه قيمة للنثر كقيمة الشعر « ولا داعي ابدا لان نعترف « مؤلف » تشيد بأنه شاعر ، وان ننكر ذلك على أولئك الذين « ألفوا » الميتافيزيقا ، والمجمل في اللاهوت ، والعلم الجديد .. » فان في هذه الآثار جميعا من الهوى ومن القوة الفنية ما لا يقل عن أي نشيد أو قصيدة !! » .

ولو تناولنا بالعرض رأي الفيلسوف « شوبنهاور » حول هذه العلاقة القائمة بين الفن والعلم لوجدنا أنه يعتقد بأن « الفن أعظم من العلم ، لان العلم لا يصل الى نتيجته التي يرمي اليها الا بعد الجهود المضني في جمع الامثلة واقامة البراهين في بطء وحذر شديد ، اما الفن فيصل الى غايته دفعة واحدة بالبصيرة والتشثيل ، هذا الى ان العلم تكييفه الموهبة العادية ، اما الفن فلا بد له من العبقرية والنبوغ » (٢٠) ولا يخفي ما في هذا القول من سطحية في شطره الاول ، ولكنه على كل ، ايمان بالفن عميق .

وللناقد الشهير « روسكين » رأي خاص حول هذه العلاقة بين العلم والفن ، يقول الدكتور عادل العوا « يرى روسكين ان العلم والفن يتفقان في بعض النقاط ويختلفان في نقاط أخرى . فكلاهما يخضع للحقيقة ، ولكن الحقيقة في العلم هي موضوع معرفة الاشياء بذاتها ، أي بصرف النظر عن تأثير الفكر الحسي . اما الفن فهو معرفة بالانطباعات التي تحدثها الاشياء في النفس : نفس الفنان . الفن والعلم يعينان بالحقيقة : الاول يعنى بحقيقة الظاهر ، والاخر يعنى بحقيقة الذات » (٢١)

(٢٠) قصة الفلسفة الحديثة : أحمد أمين - زكي نجيب محمود (بحث شوبنهاور) .

(٢١) المذاهب الاخلاقية الجزء ٢ : الدكتور عادل العوا (بحث روسكين) .

في الاسواق

تأملات وجودية

بقلم الدكتور
زكريا ابراهيم

■ لون جديد لم يعرفه الادب العربي من قبل

■ خواطر ويوميات تشتعل بالفكر والحياة وتتناول مشاكل الوجود والموت والعدم والظلام ، وتذكرنا بيوميات كيركجورد وغابرييل مارسيل .

■ مذكرات حية تلوح كلمع من النجوم وسط حلقة الجفاف الاكاديمي .

■ كتاب هام يعيش قضية « الفكر » وسوف يكون بدء سير في طريق جديد من طرق التعبير بالعربية

منشورات دار الاداب

الثلث ٢٥٠ ق.ل

كفنان لا يعمل ولا يفكر ، وإنما يقرض ويصور ويفني أي يعبر)) وبهذا قد نفى التزام الفنان نحو مجتمعه ، وطلب اليأس ، بصريح العبارة ، أن تتركه يجوب في فنه معبرا عن ذاته فقط .

وختاما لهذه النقطة ، نشير الى أن ((أتينا ، التي نعدها بلا نزاع موطن الشعر الحماسي والفناء ومقر فنون الدراما والنحت والبناء ، لم تكن لتفهم فكرة الفن للفن)) وينابع الفيلسوف ((جون ديوي)) قوله ((وما كان أفلاطون يطلبه من رقابة على الشعر والموسيقى هو ضريبة للأثر الاجتماعي بل السياسي الذي حققته تلك الفنون)) (٢٣) . وأن أفلاطون هذا ، قد نادى بضرورة اخضاع الفن للأخلاق ولخدمة المجتمع ، فلم يكن إذن يناصر نظرية الفن للفن (٢٤) . وهكذا يظهر لنا أن هاتين النظريتين الفئيتين تفغان على طرفي نقيض ، وتتنافسان على الحقيقة ، منذ فجر الحقيقة : فجر الفلسفة اليونانية .

نلج الآن زاوية أخرى من هذا البحث خاصة بعلاقة الفن بالمجتمع . ولو سرنا بالدراسة هذه سيرا تاريخيا ، لوجدنا أن الفن في العصور القديمة ، كان فنا جماعيا ولم يكن فنا فرديا ، فقد كانت جماعة بشرية كبرى تشترك في إنتاج فني لا فردا واحدا فقط ، بالرغم من اعتيادنا أن نطلق اسم احد كبار المشتغلين بالفن على هذا الفن الجماعي . ويؤيد هذا الرأي الفيلسوف الأمريكي ((جون ديوي)) بقوله من نص له بعنوان ((الفن والحضارة)) : ((ولكن الفنون التي شادت بها الشعوب البدائية ذكرى عاداتها ومؤسستها ، تلك الفنون التي كانت ((جماعية)) هي المنبع الذي نشأت منه جميع الفنون الجميلة)) .

ولكن قد نجد لنشأة الفن ، غير هذا ((التفسير الاجتماعي)) ، فبعض علماء الجمال يفسرونه تفسيراً دينيا ، بدعوى أن الدين هو الظاهرة الاجتماعية الكبرى التي عملت على ظهور الفن وتطوره وترقيه . فالعابد مثلا كانت مثبت الفن، لأن الفن دعا الى ضرورة تزيينه، فظهر ((فن النحت)) ومن براعة المتألمين ظهر ((فن التصوير)) ، ومن إقامة الحفلات الدينية ظهرت ((فنون الرقص)) ومن الشعر الفئائي ظهر ((فن الموسيقى)) . . وهكذا ظهرت هذه الفنون بواسطة الدين . ولنا أن نقب على هذا التفسير ، بأنه صحيح الى حد اعتباره جانبا من جوانب تفسير نشأة الفنون ، وهو ينطبق في الغالب على جماعات معينة من هذه البشرية ولا ينطبق عليها كلها على وجه الإطلاق .

وإذا درسنا هذه الحالة في العصور الوسطى لوجدنا أن الكنيسة قد أحييت عددا لا يستهان به من الفنون وفي مقدمتها ((فن العمارة)) ، فالكنائس والكاتدرائيات القديمة ، التي تمتد الى تلك العصور ، نستطيع أن نعتبرها اليوم لوحات فنية تفيض بالفن ، سواء في التزيين على الجدران ، أو في التماثيل الواقفة هنا وهناك ، أو في اللوحات الفنية التي سقفت السقوف أو ملأت بها الجدران .

وتابع مع الدكتور زكريا ابراهيم ، فنرى ان هذه النظرة قد تبدلت في العصر الحديث ، فأخذ بعض علماء الجمال يربطون الفن بالحب ، بدعوى أن الانثى هي الدافع الاول الى تفنن الفنان ، ذلك أن معظم فنون الانسان الحديث قد نشأت عن : الجمال الانثوي ، والغريزة الجنسية ، وشهامة الرجولة ، والصراع بين الجنسين ، وخيالات الحب العذري ، وتصورات الفروسية ، ولذات الحياة الجنسية . . الخ)) ولا بد من الاضافة الى ان للغريزة الجنسية اثرا في مضمار نشوء الفن .

وتذكرنا فكرة الدكتور زكريا عن ربط الفن بالحب في العصر الحديث ، بقول للفيلسوف الحيوي ((غويو)) الذي يرى أن ((الفن العظيم هو ان يحيا المرء حياة سائر الكائنات ، ثم يعبر عن هذه الحياة . وان تحيا حياة غيرك ، أليس هذا هو الحب ؟ فليس الفنان الحقيقي ذلك

(٢٣) جون ديوي : الدكتور احمد فؤاد الاهواني (سلسلة

نوايغ الفكر العربي - ١١ -)

(٢٤) أفلاطون : الدكتور احمد فؤاد الاهواني (سلسلة

نوايغ الفكر العربي - ٥ -)

الذي يتأمل بل ذلك الذي يحب ثم يعبر عن حبه للآخرين ، ان عاطفة الحب هي مبدأ الشعور الفني)) (٢٥) .

وسنأتي ما دمنا في صدد البحث عن الفن والمجتمع ، على بعض من النظريات الجمالية التي تؤمن باجتماعية الفن ، فنشير أولا الى نظرية الناقد ((آلان)) الذي يقسم الفنون الى فنون فردية كالشعر والتصوير وغيرهما ، والى فنون اجتماعية كالعمارة والمسرح وغيرهما ، الا أنه يضيف : ومع هذا ((فليس ثمة فن فردي محض على الإطلاق)) .

والفنون الاجتماعية ، ليست اجتماعية في إنتاجها فقط - كالعمارة ، والفن المسرحي ، وصناعة الافلام السينمائية ، والفن الموسيقي - فانها اجتماعية في استهلاكها كذلك ، أي ان تذوق الموسيقى والتمثيل المسرحي من قبل جمهور ، وهي كذلك اجتماعية في موضوعها ، كفنون التاريخ والرواية .

ويعقب الدكتور زكريا ابراهيم على هذه النظرية بقوله ((ولسنا نجد عملا فنيا واحدا يمكن القول بأن موضوعه فردي محض ، اللهم الا كتابة السيرة الخاصة ، بوصفها دراسة لشخصيات فردية مستقلة)) .

ويطلع علينا عالم الجمال الفرنسي ((تين)) بنظرية استنطيقسية حتمية ، أراد بها دراسة الفن بطريقة الدراسة العلمية ، المطبق عليها اسلوب العلم الطبيعي ، منتهجا تحليل الظواهر الجمالية وذلك حتى يتسنى له التوصل الى ((القانون العلمي الذي يتحكم في سير الترقى الفني)) ، وهذا كما يبدو اتجاه فرد في تطبيق الدراسة العلمية على الفن .

وقد كانت نقطة انطلاق ((تين)) في دراسته : الاعتراف بأن العمل الفني ليس واقعة فردية منعزلة ، ليتوصل الى الحقيقة القائلة بأن العمل الفني هو ظاهرة طبيعية تحددها الصورة الجماعية للعقلية الجماعية ((ان ابتكارات الفنان ومشاركات الجمهور الوجدانية ، قد تبدو في الظاهر تلقائية حرة وليدة الهوى ، وكأنها هي رياح عاصفة عارضة متقلبة ، ولكنها في الحقيقة - مثلها كمثلى الرياح نفسها - إنما تخضع لمجموعة من الشروط المحددة والقوانين الثابتة . ونسأل هنا عن هذه ((الشروط العامة المحددة)) التي تتحكم في الظاهرة الجمالية ؟ فنجد الجواب على ذلك ان هذه الشروط ثلاثة هي الجنس او السلالة اولا وهي مجموع الاستعدادات النظرية الوراثية ، والبنية ثانيا وهي الوسط الطبيعي الاجتماعي ، والعصر ثالثا وهو الزمن الذي يتواجد فيه الفنان وتظهر فيه الظاهرة الجمالية ، على ان هذا الشرط الثالث هو في رأي ((تين)) عامل استنطقي هام .

ولا بد من التعقيب على هذه النظرية ، فهي تتجاهل تماما نفسية الفنان ، كما تتجاهل نوعية الظاهرة الاستنطيقية باعتبارها تختلف باختلاف التام عن أي ظاهرة اجتماعية ، لان الفن نشاط انساني قائم بذاته بوصفه طريقة خاصة في المعرفة لها حقيقتها الخاصة وغايتها المحددة .

بعد ((تين)) نذهب الى ((غيو)) الذي أقام دعائم اجتماعية الفنية على منهج الحيوي ، والاجتماعية الفنية تتجلى عنده في ان الفن لا يخرج عن كونه نشاطا اجتماعيا تنحصر غايته في الحياة او الواقع نفسه : والفن - بالتفصيل - اجتماعي في نشأته فالإنفعال الجمالي توسيع للحياة الذاتية ، وهو اجتماعي في غايته لان مهمة الفن انتزاع الفرد من صميم ذاته ليوحد بينه وبين الأفراد فالفن هنا أداة توافق ، وهو ثالثا اجتماعي في ماهيته ما دام جوهر النشاط الفني هو هذا الطابع العاطفي طابع المشاركة الوجدانية المتجلية في وحدة الأفراد بواسطة الفن .

وان آراء ((غيو)) هذه في ان الفن اجتماعي في نشأته وغاياته وماهيته ، يذكرنا بقول ((غويو)) من أن ((الفن اجتماعي ، لا في غايته ونتائجه فحسب ، بل في جوهره وروحه أيضا)) فالفكر ان ((غيو)) و ((غويو)) لا يتوافقان في اسمهما فقط ، بل في فكرهما كذلك .

(٢٥) مسائل فلسفة الفن المعاصرة : ج.م. غويو (ترجمة سامي

الدروبي) .

وان اتفق « غيو » مع « غويو » في هذه النقطة ، فهو يتفق مع « كونت » الوضعي ، و « تولستوي » الصوفي ، و « بسرودون » الاشتراكي الفوضوي (٢٦) ، في القول بأن ما من شأنه أن يجمع الناس ويوحد بينهم لا بد من أن يكون جميلا ، وان كل ما من شأنه ان يضعف الرابطة الاجتماعية لا بد على العكس ، من ان يكون قبيحا .

الا ان نظرية « غيو » ككل نظرية ، لا تخلو من نقاط ضعف ، فهذا « شارل لالو » عالم الجمال الفرنسي يقول في « غيو » : انه على الرغم مما في فلسفته من حماسة شعرية رائعة ، الا انها لا تتفق مع أي فهم صحيح لعلم الجمال ، وعلم الاجتماع من جهة أخرى ، ويرى الدكتور زكريا ابراهيم بالاضافة الى رأي « لالو » هذا ، ان « غيو » قد عجز عن فهم الدور الحقيقي للمجتمع في صميم الظاهرة الجمالية ، كما فشل في بيان العلاقات الديناميكية التي تقوم في المجتمع الواحد بين الفنان والجمهور .

ولا بد أخيرا من الإشارة ، اشارة موجزة جدا ، الى الدراسات الجمالية التي طلعت علينا في أوائل هذا القرن العشرين ، كدراسة « اوتيس » الذي اعتبر الفن واقعة من وقائع الحضارة او الثقافة ، وكدراسة « هورتيك » التي أخذت تربط الفن بالتاريخ ، فاعتبرته واقعة تاريخية ، وكدراسة « فوسيون » التي حاولت ان تثبت لنا ان التجربة الفردية لا تنفصل في أي حال لدى الفنان عن التجربة الجماعية ، وكدراسة « نيتشه » أخيرا ، التي بحثت الصراع بين الفنان والجمهور ، فأشار فيها الفيلسوف الوجودي الى محاربة الجمهور لفنانه المعاصر ، ونذكر هنا قول المدير العام لمتحف الفنون الجميلة بباريس للفنان « فوغان » في الستين الاخيرة من القرن التاسع عشر : « طالما كنت على قيد الحياة ، فان سُننيمترا واحدا لن يجد سبيله الى متاحفنا » ، وهذا رمز - وأي رمز - الى عدم اعتبار لوحات الفنان حتى يؤول هو الى الفناء ، فترفع لوحاته الى الخلود .

ونستطيع في نهاية هذه الفقرة من البحث ، ايراد رأي الناقد جبرا ابراهيم جبرا في تحرر الفرد من طغيان المجتمع وثورته الذاتية ، ليراز شخصيته الفردية ، يقول : « ولكن الفن الحديث يصور ردة فعل عييفة في نفس الفرد ، ازاء التطور السياسي الذي اتجه في الحقبة الاخيرة نحو التكتل الجماعي ، والقضاء على شخصية الفرد ، ويبدو ان الفنان ، اذا رأى شخصية الجمهور تطفى على شخصيته ، عزم على مقاومة هذا الطغيان بالتشديد من فريدته ، وتركيز همه في دوائله نفسه دفاعا عن حريته الذهنية والعاطفية » (٢٧) .

- ٦ -

وبعد ، فنتناول في هذا الجزء السادس من هذه الدراسة ، أربع نظريات فلسفية - استيطيقية ، لثلاثة من كبار الفلاسفة وهم « برغسون » و « شوبنهاور » و « ديوي » ولعالم الجمال الفرنسي « شارل لالو » ، وذلك ضمن اطار الحديث عن الفن من حيث صلته بالحياة ، لنصل مع الدكتور زكريا ابراهيم - في خاتمة المطاف - الى اننا لا نستطيع قط القول « بالصلة المطلقة » بين الفن والحياة ، كما لا نستطيع القول على العكس « باللاصلة المطلقة » بين هذين الطرفين ، بل نحن في موقف وسط ، فهناك - كما سئرى - روابط متغيرة تجمع بينهما دون ان يمتزج الواحد منهما بالآخر ، ودون ان يمحو الواحد منهما الآخر نهائيا ، والحق كما يقول « غويو » : « ان الانسان انما ينشد في الفن حياة اغنى من الحياة العادية وأغنى . فما الفن سوى حياة واسمعة ، وان اضطرابنا مع الاسف ، الى اللجوء الى الصورة واللعب لبلوغ هذا الاتساع » (٢٨) .

أراد « برغسون » أن يقدم لنا في نظريته في الفن استيطيقا سلبية ،

(٢٦) هذه هي الفوضوية : هنري أرفون - ترجمة محمد عيتاني

(ص ٤٩)

(٢٧) الحرية والوطنان : جبرا ابراهيم جبرا .

(٢٨) المذاهب الاخلاقية ، الجزء ٢ ، الدكتور عادل العوا « بحث غويو »

تقوم على الادراك المحض أو التأمل الخالص ، فالفنان في رأي هذا المفكر هو ذلك الانسان المتأمل الفاحص « الذي يرى الاشياء جميعا في صفاتها الاصلية ، ويدرك اشكال العالم المادي والوانه واصواته . كما يدرك ادق حركات الحياة الباطنة » فهذه النزعة تطلق عليها نصت « النزعة الحدسية الصوفية » ، فكان الفن هنا عين مينافيزيقية « فاحصة .

فالربط بين الفن « البرغسوني » والحياة اذن ، هو ربط تأملي سلمي فحسب ، ويتم هذا التأمل بوجود ملكة حدسية عند الفنان ، تساعده على رؤية الواقع عن طريق لون من المشاركة او التعاطف او الاتحاد . والحق ان مثل هذه النزعة لا تسلط الاضواء حول الصلاقة بين الفنان والعمل الفني ، بالاضافة الى ان الفنان المدرك بالحدس ، لا ينظر الى الطبيعة لغاية ما ، بل ينظر اليها باعتبارها غاية في ذاته ، اللهم الا ان نظر اليها لغاية « المتعة » فهو لا يدرك اذن من اجل العمل ، بل من اجل الادراك .

الا ان « برغسون » يقع في تناقض صريح ، ففي الوقت الذي يقول فيه بأن الفن هو ضرب من الايحاء الذي يبهده حواسنا ويخسر قوانا الفعالة وذلك حتى يجعلها تتناغم مع ايقاع العاطفة الخاصة التي يعبر عنها الفنان ، لا يلبث ان يقول بأن الفن يتطابق مع الحياة أو هو الحياة نفسها ، ما دام من شأن الحياة الخصبة العميقة ان تفتينا عن كل فن او ان تصبح هي ذاتها اسمى صورة من صور الفن . والدكتور زكريا ابراهيم يرى ان نظرية « كنظرة برغسون الى الفن ، لا بد ان تنتهي في خاتمة المطاف الى الحاق الفن بالفلسفة بدلا من ربطه بالحياة ، فيصبح الفن بذلك عيانا فلسفيا يتصرف فيه الفنان عن الواقع العملي من اجل الاستغراق في ضرب من المشاهدة الصوفية ، ذلك لانه ما دام الحدس هو جوهر الخبرة الفنية ، فان الادراك الجمالي لا يخرج عن كونه رؤية لا تكاد تتميز عن الموضوع المرئي ، أو معرفة يمكن اعتبارها ضربا من الملامسة .

ولنا ان نرد على « برغسون » أخيرا ، بأن الفن ليس سلبيا الى هذا الحد ، بل هو ايجابي ، انه ابداعي فني خلاق ، يجسد الشاعر والاحاسيس التي تنفعل في نفس الفنان - الشاعر ، من جراء تأمله في لوحة ما من لوحات الطبيعة الحية ، او هو محاكاة في بعض من مواضيعه ، او هو صنعة وعمل ارادي فني ، اما ان يكون الفن تأملا سلبيا وحسب ، فهذا أبعد ما يكون عن حقيقة الفن .

نمرض بعد هذا ، نظرية الفيلسوف المتشائم « شوبنهاور » في الفن ، الفيلسوف الذي يرى في التذوق الفني انتقالا من الإرادة الى المشاهدة ، ومن الرغبة الى التأمل ، وكل تأمل فني في نظره ، لا بد من ان ينطوي على نقطتين رئيسيتين : النقطة الاولى وهي النظر الى الموضوع باعتباره « مثلا » - بلغة أفلاطون - ، لا شيئا فردا . والنقطة الثانية وهي شعور النفس العارفة بوصفها ذاتا عارفة خالية من كل ارادة . فالفيلسوف شوبنهاور هنا ، يريدنا ان نندمج في الموضوع الذي نتأمله ، دون ان ندخل الإرادة في ذلك ، أي يريدنا ان تكون نظرتنا نظرة موضوعية خالصة ، فنندرك الاشياء باعتبارها « مثلا » لا باعتبارها « بواعث » متحررين في ادراكنا هذا من كل اسر لارادة أو رغبة أو هوى ، وهنا ترتفع النفس المدركة الى مستوى النفس المنحدرة من كل ارادة « وهكذا يتحرر كل منهما « الموضوع والفنان » من أسر الزمان وشتى العلاقات الأخرى » .

ومن هذا الرأي ، جاء رأيه في « العبقري » فاعتبره ذلك الرجل الذي ينسى فريدته ، فلا يعود يحيا الا بوصفه ذاتا محضة هي مجرد مرآة للموضوع او صورة للمثال . فالعبقري « الشوبنهاوري » اذن هو ذات عارفة خالصة ، عارية من الإرادة ، خالية من الاسم ، عالية على الزمان .

وللفن عند فيلسوفنا المتشائم هذا ، وظيفة (ليست وظيفه خدمة الفلسفة كما يراها أفلاطون) (٢٩) بل التحرر من الالم ولو كان هذا

(٢٩) أفلاطون : الدكتور احمد فؤاد الاهواني « سلسلة نوابغ الفكر

الغربي - ٥ - »

التحرر مؤقتا ، يقول « ان الفن يخفف من امراض الحياة ، لانه يطلعنا على العنصر الخالد الشامل وراء الصور الفردية الزائلة » ويقول فسي موطن اخر « هذا التحرير للمعرفة من خضوعها للارادة ، هذا النسيان للذات الفردية ومصالحها المادية ، هذا السمو بالعقل الى مرتبة التأمل الالارادي في الحقيقة هو وظيفة الفن (٣٠) » .

ونستطيع اذن ان نخلص مع القارىء ، بان الفيلسوف شوبنهاور، قد سبق برغسون في القول باستطيقا سلبية قائمة على التأمل المحض . ومن هنا جاء فشل كل من هذين الفيلسوفين في الربط بين الفن والحياة الا عن طريق القول بالتأمل او النظر او الحدس او المشاركة الصوفية، في رأي الدكتور زكريا ابراهيم .

ونرض ثالثا بايجاز ، كدأبنا لصيق المجال ، نظرية « جون ديوي » في الفن ، تلك النظرية التي ربطت بين الفن والتجربة بمعنى « ان التجربة الجمالية مظهر للحياة ، وتسجيل لها واحتفال بها في حضارة ما ، وهي وسيلة لترقية تقدمها ، وهي الى ذلك الحكم النهائي على صفة هذه الحضارة ، ذلك ان التجربة الجمالية في الوقت الذي يتدمعها افراد ويستمتع بها افراد ، فهؤلاء وهؤلاء انما يكونون على هذه الحالة في مضمون خبرتهم بسبب الثقافات التي يشاركون فيها (٣١) » كما يقول هو نفسه من نص بعنوان « الفن والحضارة » ، فهو يريد ان يصبغ الفن بالصيغة النفعية العملية الوظيفية ، وان يسم الخبرة الانسانية بالسمة الجمالية . ولقد وجدنا ان « جون ديوي » يريد ان يوسع من مفهوم « الخبرة الجمالية » لكي يجعل منها ظاهرة بشرية عامة تصاحب شتى خيراتنا اليومية العادية ، فليس هناك حد فاصل يعزل الخبرة الجمالية عن الحياة العملية ، أو يئى بالفنون الجميلة من الصناعات والفنون التطبيقية ، بل لا بد لنا - في رأي الفيلسوف الامريكي - من ان نتور على كل نزعة ارسنقراطية تريد ان تجعل من الفن ميزة خاصة يتمتع بها اصحاب الامزجة الرقيقة او الاذواق الرفيعة . وهو يشير لنا بان لكل تجربة سمة فنية ، فيما اذا جاءت هذه التجربة : متناسقة متنسقة مشبعة باعثة على الرضى ، فالعنصر الجمالي - كنتيجة - انما هو توق لتلك السمات العادية الي تميز كل خبرة سوية مكتملة .

وان - بسط فيلسوفنا هذا بين الفن والتجربة ، فهو ربط بين الفن والحضارة ، في دائرة اوسع واشمل ، فهو يقول بان تواصل الثقافة في انتقالها من حضارة الى اخرى ، وفي جريانها داخل الثقافة على حد سواء ، شرط يقوم على الفن اكثر من أي شيء اخر . ويضرب مثلا على ذلك « طروادة » ، المدينة التي انما تعيش في خاوطرنا بالشعر وبالانار الفنية التي اكتشفت من اطلالها ، فكل خيراتنا اذن في الحياة الاجتماعية قد اصطبغت بصيغة استطبيقية في كل زمان ومكان ، كما يظهر ذلك من دراسة اثار المجتمعات القديمة وعاداتها وانظمتها وصناعاتها وشتى مظاهر انتاجها ، ومن هنا أتى رأي « ديوي » في أن الفن ليس ملكا لفئة من ذوي النفوس المرفهة والاذواق الرقيقة وحسب .

ولو بحثنا عن رأي « ديوي » في نظرية « الفن للفن » لوجدنا انه يعارضها ويناهضها، اذ هو يعتقد بان الفن ما انفصل يوما عن الصناعة، أو الخبرة الجمالية عن الحياة العملية ، هذه الخبرة التي هي مظهر حياة كل حضارة وسجل لها . فليس في استناعتنا قط ان نفصل الفن عن الحياة الحضارية لكل مجتمع ، ما دامت الحضارة « بمعناها الواسع هي مصدر شتى انواع الفنون . ومن هنا رفض ديوي ذلك الفصل بين « الجميل » و « النافع » بالفنون الجميلة - في رأيه - هي فنون نفعية دون ريب .

أما نظرية « شارل لالو » فهي باختصار ، فلسفة تعبيرية (تؤمن بما قاله كروتشه من ان وظيفة العمل الفني هي التعبير عن شخصية

(٣٠) قصة الفلسفة الحديثة : أحمد أمين - زكي نجيب محمود « بحث شوبنهاور » .

(٣١) جون ديوي : الدكتور احمد فؤاد الاهواني « سلسلة نوابغ الفكر الغربي - ١١ - » .

الفنان بأكملها) ومن هنا نلمس ، بدءا ، تأثر « لالو » بـ « كروتشه » . وان نزعة « لالو » هي نزعة نسبية اجتماعية ، فهو يرفض قبول أي نزعة فنية على انها نزعة مطلقة تصدق على جميع الاعمال الفنية على السواء، لان الواقع الاستطيق في نظره ، لا يكون كتلة واحدة متجانسة متماسكة، بل هو يتكون من حالات جزئية عديدة متباينة .

وثمة في رأي « لالو » خمسة اوجه لاتصال الفن بالحياة : هي أولا - الوظيفة التكنيكية « وهنا نجد الفن في صورة نشاط صناعي حر » فينظر الفنان الى عمله الفني دون ان ينسب اليه أي اعتبار سياسي أو ديني او اخلاق ، بل ينظر اليه في ذاته . ويسرى الدكتور زكريا ابراهيم ان نزعة « الفن للفن » التي ظهرت في القرن التاسع عشر، كانت صدى لهذه « النظرة » ارسنقراطية في الفن .

والوظيفة الثانية ، هي الوظيفة الكمالية « وهنا تكون مهمة الفنان أن ينسبنا الحياة بان يصرفنا الى اللهو او اللعب او الترف » والمعروف في تاريخ فلسفة الفن ان اول من قال بان الفن هو لون من الوان اللعب هو الفيلسوف الانتقادي « كانت » ولحقه فيما بعد كل من شيلر وسبنسر ولامارتين وغيرهم ، فكان النشاط الفني هنا هو مجرد صورة عليا مسن صور اللعب او اللهو .

وأما الوظيفة الثالثة لاتصال الفن بالحياة ، فهي الوظيفة المثالية او الافلاطونية « وتكون مهمة الفن هنا العمل على تجميل الواقع او تجسيم المثل الاعلى » فيكون الانتاج الفني هروبا من الواقع، والتنجاء الى جنة المثل الاعلى ، وتعلقا بأهداب المبادئ الانسانية السامية ، وهذه نظرية تعارض نظرة الوجودية المعاصرة ، في رأي الدكتور زكريا ابراهيم .

أما الوظيفة الرابعة فهي التطهيرية او العلاجية « وتكون مهمة الفن هنا تطهير انفعالاتنا عن طريق ما اسماه ارسطو قديما باسم الكاترسييس Katharsis » وهو ان تجيء المأساة ، فتحدث استبعادا أو طردا لما لدينا من مشاعر الخوف والرأفة والحب ، بان تستوعب كل ما لدينا من حاجة الى الشعور في نطاق خيالي .

والوظيفة التكرارية أو التسجيلية ، هي الوظيفة الاخيرة ، وهي كما يظهر من اسمها ، عبارة عن محاكاة للطبيعة او للواقع ، وهي طبيعية عند « تين » ، وحيوية عند « فويو » ، وواقعية عند « زولا » ووجودية عند « سارتر » ، ولقد آتينا بالتفصيل في موضع سابق من هذا المقال على نظرية المحاكاة ونقدها .

ويشير الدكتور زكريا ابراهيم اخيرا ، الى ان « لالو » قد جمع بين طرفي نقيض في قضية الفن والاخلاق ، فنولستوي في تصببه للاخلاق في الفن ، وبودلير في لا أخلاقيته الفنية ، نجدهما عند « لالو » الذي حاول التوفيق بين هاتين النزعتين ، مؤكدا على « النسبية » وعلى ضرورة ترك فكرة المطلق والقطعي نهائيا ، وهو يتوجه بالسخرية من وجه اخر الى المنادين بالفن الموجه معتبرا ان الفن لايقوم الا في جو ملؤه الحرية ، لانه فوق العقبات والعراقيل السياسية والاخلاقية والدينية .

ولي أن أعقب بكلمة صغيرة وصفية على هذه النظرية ، فهي كما أرى نظرية تركيبية ، جمعت عدة آراء وعدة متناقضات في كل واحد، مع ان هذا الكل قد لا يبدو لنا كلا متسقا ، ولكنه « كل » على كل حال .

- ٧ -

هنا نصل الى بحث هام في مشكلة الفن ، الا وهو مسألة الإبداع الفني ، لننتقل منها الى مشكلة التذوق الفني (٣٢) . والحق ان هذه المشكلة - الإبداع - هي مشكلة بحد ذاتها ، تتعارض فيها آراء النقاد والعلماء الجماليين والفنانيين أنفسهم . وقد كان نقطة الانطلاق في هذا المجر الفلاسفة اليونان الذين عالجوا هذه القضية ، كشيخ الفلاسفة سقراط ، وكافلاطون ، وكالمعلم الاول ارسطو .

ولكن أفلاطون بالذات ، قد اهتم كثيرا بمشكلة الإبداع الفني، فهو

(٣٢) سنعمتد في هذا الجزء من الدراسة على كتاب الدكتور زكريا ابراهيم « مشكلة الفن » بصورة اساسية .

أول من رأى أن الإبداع يقوم على « الإلهام » أو هو نتيجة « ضرب من الجنون الإلهي » . فالفنان عند هذا الفيلسوف هو ذلك الشخص الموهوب الذي اختصته الالهة بنعمة الوحي أو الإلهام ولو أننا « ضربنا صفحسا عن تفسير الإلهام تفسيرات شعرية من انه يهبط على المرء من عل ، وجدنا انه يفسره تفسيراً يبدأ من النظر الى المحسوسات ومشاهدة الصور الجميلة ، سواء ما كان منها طبيعياً او فنياً ، ويظل المرء يتدرج من الجمال المحسوس حتى يبلغ الجمال الكلي العقلي الذي يشمل جمال العالم وجمال الحكمة (٢٣) » .

ولو شربنا بالبحث سيرا تاريخياً لوجدنا ان « الافلاطونية الجديدة » اخذت تدعم هذه النظرة الصوفية الى الفن ، فسرت بين الناس فكرة الفنان الذي وهبه الله الإبداع الفني بطابع سحري الهي ، ومن هنا أتت دعاة الافلاطونية في عصر النهضة هذه الفكرة ، فدعوا الى تمجيد الفنان وتفسير اعماله - كسابقهم من الافلاطونيين - على أساس ملكة سحرية فردية .

الا ان بعض الفنانين اخلوا في تقليد الفنانين الاصلاء ، فكانوا يتظاهرون بالعبقرية ببعض من تصرفاتهم وأمزجتهم المصطنعة ، موهمين الناس ، بان الله قد منّ عليهم بقبس من الإلهام ، اذ لا فن عندهم بلا الهام ، ومن هنا جاءت المبالغة في اعترافات الفنانين حول الإلهام والوحي اللذين كانوا يشعرون بهما في غالب اوقانهم ككل من روسو ، ونيتشة ، وكولردج .. وغيرهم .

ولكن العملية الإبداعية هذه ، قد انتقلت لدى الدارسين في العصور الحديثة ، من طور الوحي والإلهام الإلهيين ، الى طور الدراسة الحضارية ، فجاءت النظرية الاجتماعية او الحضارية في تفسير الإبداع الفني ، والتي تضع بادئ ذي بدء الفن باعتباره ضرباً من الصناعة ، او الانتاج الجماعي ، وهذه النظرية ترى كذلك ان الحياة الجمالية للجماعة تبدو مسجلة في قوانين الصنعة الفنية . فالنظرية هنا - كما تبدو - نظرية اجتماعية محضة .

وهذه النظرية الاجتماعية ، تبين لنا فيما تبين ، كيف ان الفنان ليس مخلوقاً الهياً مشوباً بانهام سحري ، بل انه مخلوق ارضي ، وبالتالي فليس ابداعه بحال ابداعاً فردياً محضاً ، بل ان الإبداع كثيراً ما يجيء مشروطاً بالعديد من العوامل الحضارية التي تشبع في البيئة الفنية المحيطة بالفنان ، ولهذا نشعر بضالة الانتاج الفني كلما وقفنا على العناصر التي عملت على تكوين هذا الإبداع ، سواء في الامم بالجمو الحضاري الانساني المؤثر ، او بالاهتداء الى بعض المصادر التي اخذ الفنان نماذجها عنها . فالاصالة اذن في كل الاحوال ، اصالة نسبية لا تكون ابداعية كل الإبداع ، وان الدارس للوحات الفنانين في عصر ما من العصور ، يلحظ كثيراً من التشابه بينهم ، بالرغم من اصالة كل منهم . يقول الدكتور زكريا ابراهيم في هذا الصدد « ولو اننا نظرنا الى فناني العصر الواحد ، من وجههم نظر عصر فني آخر ، لالفينا ان ثمة تشابهاً كبيراً بينهم ، على الرغم من ايمان كل منهم بأصالته الشخصية ، وتمييزه الكبير الواضح عن غيره من فناني عصره ، ولهذا يقرر بعض مؤرخي الفن ان في « ميكايل انجلو » و « ليوناردو دافنشي » و « رافائيل » من التشابه ، ما لم يستطع واحد منهم ان يظن اليه .

والمعروف عن علماء النفس ، انهم يفسرون الإبداع ، باعتباره تحطيماً لكل قديم ، وبناء لكل جديد . ولكن اصحاب هذه النظرية الحضارية في تفسير الفن ، يرون على العكس ، ان الإبداع ان هو الا « تحصيل تدريجي لما تقترحه الجماعة على الفنان من تقاليد فنية واتجاهات جمالية » . فالنظرية هذه ، تحاول كما بدا لنا ، التقليل من اهمية الإلهام والذاتية الفردية الإبداعية ، بل هي على العكس من ذلك ، تعلق كبير اهمية على المجتمع الذي يدفع الى هذا الإبداع ويكون له الاصح الاول في خلقه .

فان ، نستطيع ان نخلص الى النتيجة التالية وهي ان العمل

(٢٣) افلاطون : الدكتور احمد فؤاد الاهواني .

الفني في اعتقاد هذه النظرية ، ليس ظاهرة فردية محضة ، بل هو واقعة حضارية لها جذورها العميقة في المجتمع البشري الذي يعيش في كنفه الفنان ، حتى ولو بدا لنا ان لتناجه طابعاً سحرانياً او مسحة صوفية ، تلخيصها كلمة « الإلهام » .

ودراسة مشكلة الإبداع الفني تستتبع بالضرورة دراسة مسألة « الاصلالة L'originalité » . يعتبر « لولان » مثلاً ان العمل الاصيل هو ذلك الانتاج الجديد الذي يحدث في مجال التاريخ ضرباً من الانفصال ، فالاصل هنا اذن ، هو الحدث المبكر الذي لا يشبهه في وجه من الوجوه ، أي شيء آخر سبق لنا ادراكه او تقبله او معرفته . ويقول « باير » عالم الجمال الفرنسي « ان مفتاح أحجية الإبداع الفني انما ينحصر - على وجه التحديد - في الاصلالة والتقليد معا » .

واذا نظرنا الى عملية الإبداع الفني بحد ذاتها ، لوجدنا ان عوامل شعورية ولا شعورية تتصافر في سبيل بعثها . يقول الشاعر الانكليزي « كولردج » من نص له بعنوان « الفن وسيط بين الطبيعة والانسان » : « وفي كل عمل فني ، يتحقق التوفيق بين الخارجي والباطني ، ويسمى الوحي اللامعي بميسمه ، فيظهر الوعي باللاوعي ، والرجل العبقري هو الذي يجمع بين الاثنين ، ولهذا السبب يجب عليه ان يشارك فيهما معا (٢٤) » .

ولقد شبه البعض الانتاج الفني ، بوجه او بأكثر بعملية الولادة ، فالفكر « يونغ » يرى ان للعملية الإبداعية « صفة اثوية » وذلك لان العمل الإبداعي عنده انما ينبع من اعماق اللاشعور ، او ان شئت فقل من ملكوت الامهات ، وحينما تغلب القوة الإبداعية على الحياة البشرية ، فان الارادة الفعالة سرعان ما تستسلم عندئذ لحكم اللاشعور ، فلا تثبت الذات الشعورية ان تراجع وتستحيل الى تيار سفلي ، لكي تكتفي بمشاهدة ما يجري من احداث دون ان تكون لها أدنى يد في تسييرها » .

ولزاماً علينا ، ما دمنا في صدد البحث في المشكلة الإبداعية الفنية ، ان نأتي على مسألة هامة جداً الا وهي « العبقرية Génie »

فالعبقرية الصلة ، كل الصلة ، بالعملية الإبداعية الفنية ، والناسد الفرنسي « دولاكروا » يهيب بنا ان « نطرح كلمة العبقرية كأداة تفسير لمعاملات الإبداع الحضاري » وهو دوماً وأبداً يحاول ان يبرهن لنا على ان فعل الإبداع ليس وجداً صوفياً ، أو حدساً دينياً ، او اشراقاً الهياً ، بل هو صنعة وعمل ارادي ، فالناقد « دولاكروا » لا يرى في العمل الفني الإبداعي نظرة صوفية ، بل يعتقد انه الى جانب الكمون السذي يتفجر في الحياة الشخصية الطبيعية ، هناك مرحلة طويلة من الاستعداد المنهجي والخبرات الحسية وشتى المحاولات القصدية او الارادية .

(٢٤) كولردج : الدكتور مصطفى بدوي « سلسلة نوايغ الفكر

الغربي - ١٥ - » .

فندق نيوبالاسن

ادارة : فتحى نونى

جناح خاص
للعائلات
أسعار معتدلة
مصعدان حديثان



وسط راق
خدمة ممتازة
مياه ساخنة
تليفونات بالغرف

١٧ شارع سليمان الحلبي
(دوبرير سابقاً) القاهرة
فلسفيناوكس بعمارالدين

ت : ٤٥٩٢٦
س : ٧٩٧٩١

New Palace Hotel 17 Sh. Soliman el Halaby
Telephone 45936 - Cairo

ونخلص اذن الى اعتبار العمل الفني ثمرة تركيبية هائلة تتشمل في تنظيم الاحلام ، وصياغتها في صورة استيقظية تتلاءم مع شعور الفنان . ويرى « غويو » ان الفن لا يستطيع ان يحقق نظراته ، ويرزها الى الخارج الا بالعقريّة ، والعقريّة عنده غريزة خلقة . وقد حاول بعض الفنانين والشعراء ان يصفوا انفسهم في حالات العقريّة او الابداع ، كتب « شيلر » في رسالة عميقة الى « جوته » يقول : ان عاطفتي تستيقظ قبل ان يكون لها موضوع محدد واضح ، وانا اشعر في اول الامر بنوع من التهيؤ الموسيقي يملأ نفسي ، ثم تأتي الفكرة الشعريّة بعد ذلك ويعقب غويو بقوله : « ان الفنان مزود بفريزة حقيقة تدفعه الى الخلق والانتاج دفعا » (٣٥) .

نتعرض بعد هذا ، الى بعض المدارس الفلسفية والنفسية التي حاولت دراسة الاعمال الفنية ، على ضوء الحياة الذاتية للفنان ، فتأخذ مثلا على ذلك مدرسة التحليل النفسي التي يتزعمها « فرويد » . لقد حاول « فرويد » ان يستخلص العمل الفني من صميم الخبرات الشخصية للفنان ، ونظريته ترد العمل الفني هذا ، في خانة المطاف، الى العقد المكبوتة في اللاشعور . وقد طبق عالمنا النفسي هذا ، نظريته هذه على اعمال الفنان الكبير « ليوناردو دافنتشي » وذلك بالاستناد الى كتاباته ومذكراته الشخصية ولوحاته الفنية .

يقول تحليل « دافنتشي » ان هذا المصور الايطالي الشهير ، كان ابنا غير شرعي ، مما أدى به الى الارتباط بأمه ارتباطا زائدا ، فحسب معه في تكوين علاقات عاطفية ناضجة مع الجنس الآخر ، وبالتالي فقد ظهرت لديه بعض الاتجاهات « المشبوهة » نحو الجنس المائل له ، وقد تجلت هذه الاتجاهات في ابداعاته الفنية وذلك على صورة « ايتسامات » شعريّة عنصرية (كما في لوحة الموناليزا) أو هو قد خلط بين الذكورة والانوثة (كما في لوحة يوحنا المعمدان) ، ومعنى هذا ان الفن عند « دافنتشي » كان عملية اعلاء او تسام بالفرزة الجنسية . والمعروف عن حياة هذا المصور ، ان حياته الجنسية قد تعطلت الى ابعد حد ، حتى لقد تعذر على اصدقائه ومريديه ان يثروا على اسم امرأة واحدة أحبها ليوناردو . وهكذا كان الفن عند « دافنتشي » بمثابة « تفتيح » لرغبته الجنسية ، فجاءت لوحاته الفنية تعبيراً عن تركيزه لطاقة « الليبيدو » في الحياة الوهمية ، بدلا من توجيهها نحو عالم الواقع .

وننتقل الان الى الشق الثاني من هذا البحث، فنأتي على مسألة « التفوق الفني » . والدكتور زكريا ابراهيم يتناول هذه الدراسة بعرض لنظرية « باش » في « التقمص الوجداني - أو التعاطف الرمزي » ، ومعنى « التقمص الوجداني » هو انتقال انفعالات الاخرين الينا على سبيل العدوى او التاثر الوجداني ، فنشعر باننا نجيا الامهم ونعاني أوجاعهم ونستشعر ذواتهم ، وان تأملنا للاشياء انما يعني اننا نصفي عليها روحا من صميم حياتنا ، فنجعلها تستحيل الى موضوعات جمالية، تنتعش بالحياة » .

والتجربة الجمالية عند « باش » انما هي ضرب من المخالطة بين المعرفة الفنية والمعرفة الصوفية ، فيها نوع من التمازج والاتحاد بين الذات والموضوع . بين الانا واللانا ، فالفعل الجمالي (وهو هذا الفعل الذي تتلاقى فيه الانا بالانا) انما هو فعل التقمص الوجداني .

ويبين لنا « باش » ان موقفنا ازاء العالم الخارجي ، ليس موقفا سلبيا ، بل هو موقف ايجابي قائم على تبادل مستمر بين شعورنا وبين العالم الخارجي ، ولذا يشارك جسدنا في حركاته بالتعبير عن احساساتنا باحساسات حركية ، بل ان هذه الحركية هي التي تصفي على كل ادراكاتنا الحسية الحياة .

وينتهي « باش » الى ان تأملي لموضوع من الموضوعات ، انما يعني ان « اناي » تبحث عن ذاتها في هذا الموضوع او ذلك « فالحياة الجمالية هي بمثابة سعي مستمر وراء ذاتنا المثالية التي نلتقي بها خلال الاشياء

في مراحل فنية متعاقبة ، تتكشف فيها بوارق من مثلنا الاعلى » . وانني في وقوفي امام موضوع استيقظي ما ، أحاول دوما - في رأيه - ان ارتفع فوق احساساتي وفوق مشاعري « الفردية » لادرك « الكلية » التي ينطوي عليها العمل الفني ، فأحاول التوفيق بين هذه المعرفة وذاك الوجدان ، وذلك بفضل هذا الموقف الذي تفتحه « اناي » تجاه العالم الخارجي ، موقف الاتحاد التي تخلع فيه الانا على اللانا كل ما في حياتها من عمق وقداسة وبراء .

ويعقب الدكتور زكريا ابراهيم على هذه النظرية بقوله « ان نظرية باش - في التقمص الوجداني لا تنطوي على وصف صادق لعملية التدوق الفني ، لانه توجه كل اهتمامها الى مشاعر الذات دون ان تتوقف عند العمل الفني نفسه بوصفه ذلك الموضوع الذي يفرض نفسه على ادراكي الجمالي » .

ونشير أخيرا ، الى التفريق الذي اورده « الدكتور » بين الاذواق الخاصة ، والذوق بصفة عامة . فالاذواق الخاصة هي المتوقفة على عناصر التفضيل الشخصي والميول والتربية . اما « اللوق » بصورة عامة ، فهو يعني القدرة على اصدار حكم جمالي تتجاوز فيه اراءنا الشخصية وميولنا الذاتية وافكارنا المسبقة . على ان عوامل عديدة تجعل احكامنا احكاما نسبية كاختلاف حظنا من التخصص ، وتنوع درجات الازهاف في حواسنا ، وتعدد لحظتنا التاريخية والنفسية ، بالاضافة الى العديد من عوامل التفضيل الشخصي ، وعندني ان اردنا اصدار حكم مطلق صادق صحيح علينا ان نتبع « قصة » العمل الفني ، وان نحاول الالام بكل اطرافه ، وعلى كل ، فان حكمي على العمل الفني - كما يرى باير - لا يحكم على العمل الفني بقدر ما يحكم على نفسي أنا .

ونشير ، ختاماً لمسألة الذوق ، الى رأي « كروتشه » من ان الذوق يهدف مع السنين لدى الفنانين الحقيقيين ، فلئن كان الفن الذي يعجبنا في أيام الشباب هو الفن التاج الفاضل المضطرب الذي يكثر فيه التعبيرات الحية كالفرامية والوطنية ، فاننا ننهي شيئا فشيئا الى السبع بل الى القرف - على حد تعبيره - من هذه الحماسات الرخيصة ، ويزداد سرورنا بالانار الفنية التي بلغت الى نقاوة الصورة ، أي الى الجمال الذي لا يتعب ولا يشبع منه أبدا (٣٦) .

- ٨ -

وفي هذه الفقرة الاخيرة من هذه الدراسة في مشكلة الفن، ستعرض الى موضوعين بارزين في مواضيع دراسة الفن ، اولهما موضوع « النقد » الفني ، وثانيهما موضوع « تاريخ فلسفة الفن » ، وسنحاول ان ننقري اراء الفيلسوف « بنديتو كروتشه » (٣٧) في كلا الموضوعين .

يتعرض كروتشه الى مفاهيم النقد التي تقول بان على الناقد ان يقوم مقام الرببي او المشرف او الرسول ، فيوحي الى الفنان بما يجب عليه عمله ، محمدا له موضوعه، متطلعا في ذلك الى فن مثالي - في فكره هو - آملا ان ينحو الفن في اتجاه معين ليصل المستوى المثالي الذي يريده . وقد يكون العكس ، قد لا يكون النقد بهذه النظرية المستقبلية ، فقد يكونون بنظرة تاريخية رجعية - ان صح التعبير - ، فيريدون من الفن المعاصر - لهم - ان ينحو نحو فن معين في زمن ماض .

ويعقب كروتشه على هذا النوع من النقد والنقاد ، ناعنا ايساه بأنه مخطيء ، واياهم بانهم مخطئون . ولقد كشف الفنان خطأ هذا الناقد ، فعامله معاملة الحيوان - في رأي فيلسوفنا - الذي يقول « اذ يعاملون أي الفنانون هذا الحيوان المرعب - أي الناقد - معاملةهم للحيوانات ، فيحاولون ان يؤنسوه ويسلوه ويخدعوه ، حتى يستفيدوا منه ، أو يطردوه ويصرعوه اذا لم يأنسوا في انفسهم القدرة على تحمل مثل هذا الهوان » .

والفهوم الثاني الذي يتعرض له فيلسوفنا الناقد ، هو مفهوم

(٣٦) المجمل في فلسفة الفن : بنديتو كروتشه .

(٣٧) المجمل في فلسفة الفن : كروتشه .

(٣٥) مسائل فلسفة الفن المعاصرة : ج. م. غويو « ترجمة سامي

الدروي » .

« النقد الحاكم او القاضي » الذي تكون مهمته التمييز بين الجميل والقبيح في الفن ، فيقدس الجميل ، ويجحد القبيح بأحكام صارمة منصفة مما . ولكن كروتشه يتساءل بعد ذلك « وهل من حاجة الى النقد للتمييز بين الجميل والقبيح ؟ » وهو يقرر بعد ذلك ان الفن قد تحقق بفضل هذا التمييز ، فالفنان يحذف القبح « وهو تسلسل أهوائه ، وإهماله وأسراعه في التنفيذ » ليصل الى التعبير الفني . فليتنا في رأيه الا نعتبر النقد حاكما وذلك لاننا اذا اعتبرناه قاضيا ، انما يحكم بالاعدام على أموات ، وينفخ الحياة في أحياء ، ظانا ان نفسه هو نسمة الله التي تحيي الموتى ، انه يقوم بعمل لا جدوى منه ، لان الجمال موجود قبل ان يوجد هو .

والرأي الثالث في النقد ، هو الذي يعتبره تأويلا أو شرحا ، فتكون مهمة النقد هنا إلقاء الضوء على اللوحات الفنية ، بتزويدنا بالمعلومات التي واكبت ظهور هذه اللوحة في عصر ما من العصور من الوجهة التاريخية ، وتفسير بعض الصور الفكرية والشعرية . ولا يستطيع أحد قط ان ينكر ضرورة وجود هذا التأويل والتفسير للعمل الفني ، ولكن كروتشه يرى انه ما دامت هذه المهمة تحمل مقدما اسم التأويل او الشرح او التفسير ، ليس من الافضل ان نسميه كذلك ؟ وظاهر ان الجواب كامن في نفس التساؤل .

وهناك بالإضافة الى هذا ، أشكال خاطئة من نوع آخر ، فهناك من النقد ما يفكك الفن ويصفه ، او ما يربطه بالإخلاق ، او ما يربطه باللذة ، او ما يقيسه بمقياس تقدم العقل الفلسفي ، وهناك - كما رأينا - ما يجرده من الصورة فيقصره على المضمون ، او ما يجرده من المضمون فيقصره على الصورة المجردة ، وهناك كذلك النقد السيكولوجي السذبي يعنى بشخصية الفنان أكثر من عنايته بالعمل الفني . واستطيع ان أقول - بشيء من التحفظ - ان « روسكين » هو من جماعة هذا النوع من النقاد السيكولوجيين ، وذلك بالاستناد الى قوله بان « الناقد الفني لا يفصل الأثر الفني عن الفنان ، ولا يتغني من تحليل الأثر الفني ان يفهم هذا الأثر وحده وحسب ليحكم له او عليه ، بل ينبغي له ان يتجاوز الأثر الى الفنان من حيث روح الحضارة التي يعبر عنها باحاساسه ومزاجه وعمله . ويرى « روسكين » ان على الناقد الفني ان يتطلع الى ما وراء الخطوط والأشكال ، ويسر غور العواطف العميقة ، وهو يفعل ذلك لا لمعرفة وجود هذه العواطف فقط ، بل ليقدر قيمتها ، ويحكم بها او عليها (٢٨) .

فما هو النقد إذن ؟ انه في رأي فيلسوفنا هذه الأشياء الثلاثة جميعا « أي الموحى - والحاكم - والمفسر » هي كل الشروط الضرورية التي يجب ان تتوفر في النقد الصحيح . ونستطيع ان نلخص - في رأيه - قضية النقد الفني في القضية الموجزة التالية ، وهي تمييز عمل النقد والفن والنوق من عمل الشارح : « هناك أثر فني آ » مع القضية السالبة المقابلة « ليس هناك أثر فني آ » ، أي - بعبارة أوضح - ان نحكم على « فنية » او « عدم فنية » اللوحة التي أمامنا . وان كل نقد ، ان احتقر الفلسفة ، نقد زائف بلا ريب ، لان النقد الصحيح هو النقد الذي يعمل على انه فلسفة وفهم للفن ، وهذا النقد الفني الصحيح هو في نفس الوقت النقد التاريخي الصحيح ، انه النقد المعتمد على التعليل . ذلك لانه لا يكفي لفعل التمييز بين الجميل والقبيح ان يقتصر على الاستنكار فحسب ، بل لا بد له من ان يرتفع ويتسع الى ما يسمى « بالتعليل » .

ولا بد لدارس فلسفة الفن ، أخيرا ، من ان يبحث - ولو في شيء من الإيجاز - تاريخ هذه الفلسفة . ويطرق « كروتشه » هذا الباب الهام من ابواب الدراسة ، فيأتي على بداية تاريخ فلسفة الفن وعصوره وخصائصه .

يذهب كروتشه ، في حديثه عن بداية تاريخ الاستطيقا ، الى ان فلسفة الفن هذه ، لم توجد خلال الفترة الطويلة الممتدة بين الحضارة

(٢٨) المذاهب الاخلاقية : الدكتور عادل الموا « بحسب روسكين » .

اليونانية ونهاية النهضة الإيطالية . ولكن هذا لا يعني بحال ان الناس الذين عاشوا في ذلك العصر لم يكن لديهم مفهوم للشعر او للفن عموما ، ولا يجوز لنا ان نفترض هذا الافتراض ، لانه يتعارض تعارضا صريحا مع الواقع ، فلقد كان لدى الفنانين ورجال الادب والنقاد اليونانيين والرومانيين مفهوم راق جدا عن الفن - على حد تعبيره .

وكذلك لا نستطيع ان ننكر وجود مفهوم للفن في عصر النهضة ، وفي القرون الوسطى ، لان لهذه العصور مدارس فنية واحكاما مختلفة عن الفن . اما ان يكون هنا فلسفة - بالمعنى المترابط لهذه الكلمة - فان هذا ما لا يراه كروتشه موجودا ، لان هذه الاحكام الفنية كانت متناثرة ، ولم تكن لتؤلف فلسفة « واحدة » - ان صح التعبير - معينة .

هذا بالإضافة الى ان تفكير القرون الوسطى وعصر النهضة ، كان متأرجحا بين ما هو طبيعي ، وما هو فوق الطبيعة ، ومن هنا جاء الفصل بين الفيزياء والميتافيزياء ، وبين العلم الطبيعي والعلم الالهي ، ونستطيع ان نخلص الى ان فلسفة الفن في الفترة السابقة على القرن السابع عشر ، ليس ناتجا عن مصادفات عرضية ، بل ينسجم كل الانسجام مع خصائص التفكير والحياة في هذه الفترة .

ولكننا نعود الى التذكير هنا كذلك ، بان هذا لا يعني بحال انه لم يكن لدى اولئك الناس والادباء والنقاد والفنانين مفهوم حول الفن في موافقه التاريخية تنفي هذا الرفض . والحق اننا مدينون لليونان والرومان باقامة العلم العلمي او التجريبي للفن في مختلف صورته من نحو وبلاغة ، كذلك نحن مدينون لهم - في رأيه - بسائر القواعد المتصلة بالفنون التصويرية والعمارة والموسيقى .

ونستطيع ان نصيف الى وجود هذا المفهوم الشائع للفن في ذلك الوقت ، وجود افكار وبعض مذاهب شائعة كذلك لها سمتها الفلسفية الصحيحة ، كالذهب الذي يربط بين الفن واللذة « وهو قابل لان يتوسع بشكل نقدي ، كذلك يستطيع ان يبرز لنا بسمته - اللذية - الخاصة مقابلا للمذهب الاخلاقي » . وكذلك المذهب القائل بان يكون الفن اداة لجعل تعليم الحقيقة لذينا وللحض على الخير حضا لطيفا محبوا « وهذا المذهب يستطيع ان يبرز لنا الصفة النظرية في مقابل اللذة الخالصة » والمذهب الثالث المنادي بمحاكاة الفن للطبيعة « يستطيع ان يجعل من التجسيديات الفنية شبيها بالاثار الطبيعية » . اذن ، ان كل هذه المذاهب لم تكن تخلو من مضمون فلسفي ، لكنها مع ذلك لم تكن لتؤلف فلسفة واحدة معينة - كما ذكرنا - .

ونأتي بعد هذا الى نقطة هامة جدا وخطيرة جدا في هذا الموضوع يقول كروتشه « ويمكن التحقق (من التقابل الدقيق بين فقدان فلسفة الفن بالمعنى الصحيح للكلمة في العصور القديمة ، وبين خصائص الفلسفة القديمة) من ظهور الفلسفة الحديثة وفلسفة الفن في آن واحد » . ولما كان فيلسوفنا يقول بان فلسفة الفن هي بنت القرن السابع عشر ، فانه يعني بذلك كذلك ان الفلسفة عامة ، هي بنت هذا القرن . وكروتشه لا يخفي هذا الرأي بل يقوله بصريح العبارة : « ان الفلسفة تنتسب حقا الى العصور الحديثة » !!

ويحق لنا ان نسأل هذا الفيلسوف : وفلسفة ما قبل العصور الحديثة ، أليست فلسفة ؟! والا . . فما هي إذن ؟! . . ولكنه سرعان ما يجيبنا « بان ما يسمى كذلك من العصور القديمة حتى عصر النهضة ، ليس فلسفة الا في جزئه الثانوي ، في حين ان الجزء الاساسي الرئيسي كان اسطورة او دينا او ميتافيزيقيا صوفيا او ما شئت فسمه » .

ويحاول كروتشه ان يخفف عنا روع هذا الرأي فيقول لنا « ولا يجب ان نخشى ذلك ، فقد بينا منذ هنيهة بصدد فلسفة الفن ، قيمة هذا النوع من الانكار الذي لا يجحد عصرا من العصور او يقضي عليه وانما يفتنه نعتا فحسب » ، اذن ما قيمة هذا النعت فحسب ؟ . . ولكنه ينباع « ويجب الا نخشى كذلك لسبب آخر ايضا ، هو ان هذه النتيجة لا تظهر غريبة مفارقة الى هذا الحد الذي يبدو ، متى تذكرنا اننا في هذين القرنين الاخيرين ، اصبحنا نشعر شعورا عميقا قويا ، تحقق شيء خارق للعادة ، الى حد ان العصور السابقة تتجمع في عصر واحد يعارضه العصر

المؤرخون - يقصد مؤرخي الفلسفي - ويكتبون فيه ، ليس هو الاخر
الا كناية عن « وحدة فلسفة الفن والفلسفة » .

وهكذا نأتي على خاتمة هذه الدراسة في مشكلة الفن ، ولا اغالي
فقط اذا قلت ، انها كانت دراسة مقتضبة موجزة ، لان مشكلة الفن مشكلة
« استيقية » كبرى ، اعرض من ان تستوعبها بالعرض والمناقشة
والنقد صفحات مجلة ، وعلى كل فلقد بذلت قصارى جهدي في هذا
البحث لاحتيط بالمشكلة من جوانبها العديدة ، محاولا اخراجه بحسلة
موضوعية ، وبصورة تركيبية جامعة لنظريات وراء العديد من الفلاسفة،
والكثير من علماء الجمال والنقاد ، مستقيا هذه النظريات والاراء من
عدة مراجع (١) ، متوخيا الاستفاضة حيث تجب الاستفاضة ، والايجاز
حيث يجب الايجاز .

م. وليد فستق

دمشق

(*) مراجع الدراسة :

- ١ - مشكلة الفن : الدكتور زكريا ابراهيم (بصورة اساسية -أ-)
- ٢ - المجلد في فلسفة الفن : بنديتو كروتشه « بصورة اساسية
- ب - » .
- ٣ - الحرية والطوفان : جيرا ابراهيم جيرا .
- ٤ - مقدمة ابن خلدون : بقلمه .
- ٥ - مسائل الفن المعاصرة : ج.م. غويو « ترجمة سامي الدروبي » .
- ٦ - المذاهب الاخلاقية : الدكتور عادل العوا .
- ٧ - مشكلة الانسان : الدكتور زكريا ابراهيم « سلسلة مشكلات
فلسفية » .
- ٨ - برغسون : الدكتور زكريا ابراهيم « سلسلة نوابغ الفكر
الغربي - ٢ - » .
- ٩ - أفلاطون : الدكتور احمد فؤاد الاهواني « سلسلة نوابغ الفكر
الغربي - ٥ - » .
- ١٠ - جون ديوي : الدكتور احمد فؤاد الاهواني « سلسلة نوابغ
الفكر الغربي - ١١ - » .
- ١١ - كولردج : الدكتور محمد مصطفى بدوي « سلسلة نوابغ
الفكر الغربي - ١٥ - » .
- ١٢ - تاريخ الفلسفة الحديثة : يوسف كرم .
- ١٣ - قصة الفلسفة الحديثة : احمد امين - زكي نجيب محمود .
- ١٤ - قضايا الفن : عفيف بهنسي .

الحالي معارضة حاسمة » ويحق لنا ان نسأل كذلك « والفلسفة تساؤل »
ما هو هذا الشيء الخارق للعادة الذي اخذنا نشعر بتحقيقه شعورا عميقا؟
أهو الثورية .. ولكن كروتشه هذه المرة لا يجب .

فهل نوافق كروتشه على ما ذهب اليه في نظره هذا ، وحبسنا
لو أتى هذا الفيلسوف على تعريف كامل للفلسفة كما يفهمها هو ، حتى
نستطيع ان نقف معه في مناقشة ذات طرفين ، فثبت له كيف ان فلسفة
ما قبل العصور الحديثة كانت تنطوي في تعريفه « مهما كان هذا
التعريف » .

وهو ان اكنفى بهذه الاشارة الى ولادة الفلسفة في العصور الحديثة
لينتقل بعد ذلك الى الحديث عن فلسفة الفن « حتى لا نصمه بالخروج
عن الموضوع » فاننا نأخذ عليه هذا المآخذ الكبير لانه طرح فكرة جسد
خطيرة ، قد نجد من النادر - وقد لا نجد - من المفكرين والفلاسفة من
يوافقه عليها ، ثم هو يعمد الى عدم مناقشتها وتبيانها ، في الوقت الذي
نلمس فيه شرحه للعديد من الافكار الفلسفية الثانوية ، في اكثر من
موطن ، شرحا مستفيضا .

لنعد ، بعد هذه المشادة بيننا وبين كروتشه ، الى سرد تاريخ فلسفة
الفن . فقد قسم كروتشه هذا التاريخ الى قسمين رئيسيين : القسم
الاول « سابق على التاريخ » وهو يشمل الالف سنة او يزيد التي سبقت
فلسفة القرن السابع عشر . والقسم الثاني وهو « التاريخ » وهو يبدأ
بالقرن السابع عشر ويستمر حتى ايامنا هذه .

وقد قسم هذا « التاريخ » الى اربعة عصور :

العصر الاول : هو عصر « فلسفة الفن السابقة على كانت » حين
كان الموضوع الرئيسي هو البحث عن الملكة الفنية وعن مكانتها بين سائر
الملكات الفكرية . والعصر الثاني وهو عصر « فلسفة الفن الكانتية
واللاحقة لكانت » .

واما العصر الثالث فهو عصر النزعة الوضعية والنزعة النفسية ،
وهنا نظر الى الفن نظرة طبيعية ، وانتهى هذا العصر - في رأيه - الى
نتيجة حسنة وهي كره الميتافيزياء .

اما العصر الرابع والآخر ، فهو « عصر فلسفة الفن المعاصرة »
وهو عصر تحرر من الميتافيزياء ، ومن النزعة الوضعية « علما بان جميع
المفكرين في العصر الحديث يخالفون كروتشه هذا الرأي اذ يرون ان هذا
العصر هو عصر الفكر الموضوعي بلا منازع ، ولكنه لم يتحرر من الفلسفة .
ويخلص « كروتشه » في النهاية الى توكيد الربط بين الفلسفة
وفلسفة الفن ، اذ يقول : ان هذا التأثير المتبادل الذي يعترف به هؤلاء

الاشتراكية والادب

ومقام الأخرى

تأليف

الدكتور لويس عوض

دراسات معمقة عن النزعة الاشتراكية
كما تبدو في آثار اكبر الكتاب العالميين

الثنى ٣٥٠ ق.ل

صدر حديثا عن دار الآداب